الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة العربي التبسي . تبسة .

تحت عنوان:

جدل الهويات وكسر المسلمات في رواية "أنا وحاييم" للحبيب السايح

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في ميدان اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

من إعداد الطالبتين:

باجي رندة

عبران سهام

إشراف الأستاذ

د. رحال عبد الواحد

اسم الأستاذ	الرتبة	الجامعة	الصفة
سلاط قدور	أستاذ تعليم عالي	جامعة العربي التبسي . تبسة	رئيسا
رحال عبد الواحد	أستاذ محاضر أ	جامعة العربي التبسي . تبسة	مشرفا ومقررا
عمر يوسف	أستاذ محاضر ب	جامعة العربي التبسي . تبسة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2021/ 2022

شكر وعرفان

«رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين» (الأحقاف:15)

الحمد لله رب العالمين قبل كل شيء، على إلهامه لنا الصبر والمثابرة وحب البحث.

وعرفانا بالجميل نتقدم بالشكر والتقدير للأستاذ المشرف "د.رحال عبد الواحد" الذي ساندنا طيلة فترة البحث والذي أنار لنا الكثير من المسالك.

كما نتقدم بالشكر الخالص للجنة المناقشة على تحملهم عبء قراءة وتقييم هذا العمل

كما نتقدم بالشكر لأساتذة قسم الأدب العربي

وكل من ساعد في إنجاز هذا العمل .

مقدمة:

لا شك أن الرواية العربية اشتغلت عبر سيرورتها على قضايا ترتبط بشكل مباشر بواقع الذات العربية في تفاعلها مع الآخر، ومن أبرز المواضيع التي لفتت انتباه الكتاب هي تفاعل الأنا العربي مع الآخر اليهودي، انطلاقا من الصورة الذهنية التي ترسخت في الثقافة العربية منذ القديم، هذه الصورة التي تكشف عن بنية الشخصية اليهودية المعروفة بالمكر والدهاء وإضمار الكراهية للعرب.

إلا أن السياقات السياسية والثقافية المعاصرة حولت رؤية بعض الكتاب نحو إعادة بناء هذه الصورة النمطية وفق ما تمليه ظروف المجتمع المعاصر الذي يتجه نحو كسر النمطية الموروثة.

وفي هذا السياق تتموضع رواية "أنا وحاييم" للحبيب السايح التي تحفر في واقع المجتمع الجزائري خلال الثورة التحريرية وبعدها، هذا الواقع الذي بدت فيه ظاهرة التعايش بين اليهود والعرب بينة المعالم، ومن هنا جاء موضوع هذا البحث موسوما ب" جدل الهويات وكسر المسلمات في رواية أنا وحاييم "

وقد كان إعجابنا بهذه الرواية التي كسرت أفق التوقع، وكان لها نصيب من جائزة كتارا 2019، وكذا ما حظيت به من مقروئية، كان ذلك كله من بين الدوافع الذاتية التي جعلتنا نقبل على قراءتها ومن ثمة دراستها.

أما عن الدوافع الموضوعية لاختيار هذا الموضوع، فيمكن القول أن الاشتغال على علاقة الأنا بالآخر يعد من أبرز المسائل التي استقطبت اهتمام الدراسات النقدية المعاصرة.

واستنادا إلى ما تخيرناه موضوعا للبحث، تتمثل إشكاليتنا المحورية في:

لماذا جاءت هذه الرواية على خلاف ما ألفه القارئ العربي بخصوص علاقة العربي باليهودي؟

هل أن رؤية الحبيب السايح في هذه الرواية تتسابق مع معطيات الواقع الاجتماعي الجزائري خلال الثورة أم أن الحبيب السايح يتغيأ كسر السائد فحسب؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات تم تقسيم الدراسة إلى:

مقدمة

مدخل نظري: صورة اليهودي في المخيال الثقافي العربي

الفصل الأول: تمثيلات الأنا والآخر في رواية "أنا وحاييم"

وتضمن الحديث عن مجتمع الرواية وتمثيلات الهوية، وتمزق هوية الآخر اليهودي، والمسخ الاستعماري الذي طال الثقافة الجزائرية جراء التواجد الفرنسي بالجزائر.

أما الفصل الثاني فقد كان بعنوان **أنا وحاييم وكسر العادة القرائية وتناولنا فيه** تهشيم الوعي العدائي في علاقة اليهودي بالعربي،ـ من ناحية ـ وعلاقة مانسميهم بالخونة بالثورة الجزائرية، وأتبعنا ذلك بتهشيم المركز ومركزة المهمش وهي محاولة للكشف عن المفارقة الرؤيوية التي استبطنتها رواية "أنا وحاييم"، وقد ختمنا هذا الفصل بالحديث عن الأبعاد الفكرية و الأيديولوجية للرواية.

وقد استعانت الدراسة بالمنهج الوصفي التحليلي الذي ينبني على كشف الظاهرة الرؤيوية في العمل السردي و محاولة إيجاد مبرراتها الفنية والإيديولوجية.

ومن أبرز الدراسات التي اتكأ عليها البحث:

المرجعيات الثقافية وبناء المتخيل السردي قراءة في رواية (أنا وحاييم للحبيب السايح) ل نور الهدى غرابة، سليم كرام. وهو مقال منشور في مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد:10، عدد:01، سنة: 2021.

إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية) لماجدة حمود، سلسلة عالم المعرفة سنة : 2013.

وكغيره من البحوث الأكاديمية واجهتنا العديد من الصعوبات نذكر منها:

ندرة الدراسات التطبيقية التي تعيننا على الإجابة عن تساؤلات الدراسة ومشكلاتها.

الوضع الصحي الحالي الذي حال دون التواصل مع المكتبات العمومية ومع كل من كان لنا أمل في الاستفادة منه كالأساتذة والباحثين مما ضيق أمامنا مساحة البحث.

ونرجو أن يكون بحثنا هذا محاولة بسيطة تفتح أمام غيرنا من الطلبة آفاقا أوسع للحفر العميق في إشكالية كسر النمط في علاقة اليهودي بالعربي في الكتابة الروائية العربية المعاصرة، كما نرجو أن يكون بحثنا هذا قيمة مضافة في إثراء مكتبة جامعتنا.

والحمد لله أولا على توفيقه لإنجاز هذا البحث المتواضع، ثم لا يفوتنا أن نشكر أستاذنا المشرف "د.رحال عبد الواحد" على ما قدمه لنا من نصائح قيمة وملاحظاته الدقيقة وسعة صدره وكرم خصاله، كما نشكر لجنة المناقشة الذين تحملوا عناء قراءة هذا العمل، فإن أصبنا فبفضل من الله ورسوله وإن أخطأنا فمن أنفسنا ومن الشيطان.

مدخل: صورة اليهودي في المنظور الثقافي العربي

مدخل: صورة اليهودي في المنظور الثقافي العربي

إن التعايش بين العرب واليهود ليست بالمسألة الجديدة إنما تداولتها الأبحاث والدراسات العربية منذ زمن قديم، وما زالت هذه المسألة تستقطب اهتمام الباحثين وإن كانت قد اتخذت مجرى جديدا وصارت تتمحور حول جدلية قائمة على الاختلاف بين استحالة تعايش العرب مع اليهود من جهة وبين إمكانية تحقّق هذا التعايش وهذا الرأي الأخير يروّج له دعاة الانفتاح على الآخر اليهودي .

1:اليهود في العصر الجاهلي:

تؤكد الدراسات التاريخية « أن اليهود نزحوا إلى الجزيرة العربية سنة 70م بعد حرب اليهود والرومان، والتي انتهت إلى خراب بلاد فلسطين، وتدمير هيكل بيت المقدس» [1]، ولعل هذا المقبوس يبين أن اليهود تربطهم علاقة تاريخية كبيرة حافلة بالأحداث مع عرب شبه الجزيرة العربية على وجه التحديد، وفي هذا السياق يقول أحمد محمد الحوفي « كانت لهم مستعمرات يهودية في الجزيرة العربية: تيماء وفداك وخيبر ووادي القرى ويثرب. وهم أهل مدينة وذكاء، وبراعة في التجارة وتثمير المال، سرعان ما اقتنوا الضياع وزرعوا واحتكروا التجارة بيثرب فاغتنوا، واشتهروا بصناعتهم كالحدادة والصباغة وصنع السلاح» [2]. تأسيسا على ما سبق ذكره، يتضح للدارس أن اليهود قد تمركزوا وعاشوا في محيط العرب وقصدوا أماكن تموضعوا فيها ومارسوا فيها التجارة حتى أصبحت بمثابة الممتلكات اليهودية التي احتضنت تجارتهم واستثمروا فيها أموالهم ومارسوا صناعتهم.

---

[1] صفوت الشوادقي: اليهود نشأة وتاريخا، دار التقوى للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 10محرم 1420هجري، (د.ط)، ص72.

[2] – أحمد محمد الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، مصر، (د،ت)، (ط2)، ص86.

« انكمشوا على أنفسهم في أحياء منعزلة، ولكنهم استطاعوا من غير شك أن يحملوا نفرا من العرب على اعتناق دينهم، وأن يذيبوهم في بوقتهم. وكانوا يتكلمون باللغة نفسها التي يتخاطب بها السكان»[1]. مما سمح لهم بالاندماج مع العنصر العربي إلى درجة لم يعد بالإمكان التفريق بين العربي واليهودي خصوصا لما تتضمنه الثقافة العربية من عادات وتقاليد ولغة وغيرها، ولم يكن اندماج اليهود بالعنصر العربي شكليا إنما ترسخ بشكل واضح خصوصا لما صار اليهود يساهمون في إضافة عناصر جديدة إلى الحياة الاجتماعية والثقافية العربية، فقد ذكر أحمد محمد الحوفي أن اليهود «أدخلوا في اللغة العربية كثيرا من الكلمات والمصطلحات الدينية مثل: جهنم والشيطان وإبليس والحج والكاهن وعاشوراء. وقد تأقلم اليهود الساكنون في الحجاز واصطبغوا بالصبغة العربية، واتخذوا اللغة العربية لغة أدبهم وكان منهم شعراء كالسموأل بن غريض بن عادياء، وأوس ابن دنى بن قريظة، والربيع بن أبي الحقيق من أشرافها، وكعب بن الأشرف من بني النضير»[2].

الكاتب هنا يبين الاحتكاك بين العرب واليهود نتيجة التعايش مع بعضهم البعض فنجدها في تبادل المصطلحات واكتسابها ونبوغ شعراء منهم نتيجة تأثرهم بالشعراء العرب.

---

[1] –كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، تر:نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، (د.ت)، (ط،5)، ص28 .

[2] – أحمد محمد الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص 87.

يقول أيضا « ولم تستطع اليهودية أن تكتسح الوثنية الجاهلية، لأن كثيرا من أحكامها شاق على العرب لا يسلسون لها، ولأنها لا تبيح الانتفاع بغنائم الأعداء بل توجب إحراقها، والعربي يقاتل ليثأر ويغنم وينتفع بالمال والأسرى» [1].

2:اليهود في عصر صدر الإسلام:

وجد العرب صعوبة في التأقلم مع بعض عادات وتقاليد اليهود لأنها مختلفة كثيرا عما ساروا عليه حيث أن اليهودية لم تجد مكانا تدخل فيه إلى ذهن العرب لتغزوهم وتسيطر عليهم.

«وقد استعمل اليهود الدسائس والمؤامرات والعتو والفساد . كما هي عادتهم دائما. في نشر العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة، وكانوا يغرون بعضها على بعض بكيد خفي لم تكن تشعر به القبائل، فيقعون في حروب دامية متواصلة، وتظل أنامل اليهود تؤجج نيرانها كلما رأتها تقارب الخمود والانطفاء» [2]، قال تعالى: « كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ» المائدة: 64

اليهود كانوا دائما وراء مشاكل وحروب العرب فحاولوا نصب المكائد وإشعال النيران بين قبائل العرب، وقد رسمت قصص التراث الديني صورة اليهودي القائمة على الغدر، والقتل فقد قتل اليهود حتى أنبياءهم، أيضا معاداتهم للمسيحية وقتل نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام ، وبلغ طغيانهم أيضا فقد أضمروا العداء للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وللمسلمين،

---

[1]) – أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، ص 88، 89.

[2] صفوت الشوادقي: اليهود نشأة وتاريخا، ص. ص 72، 73

والدليل قول ابن إسحاق: «ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة بغيا وحسدا وضغنا، لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسول منهم، وأضاف إليهم رجالا من الأوس والخزرج ممن كان عسا من جاهليته، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث (...) وكانت أحبار يهودهم الذين يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتعبدونه ويأتوه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل» [1] ومنه فاليهودي حاسد للمسلم العربي لأن الله تعالى اصطفى من العرب رسولا ولم يرسل من اليهود؛ وبهذا حاولوا مرارا النيل من المسلمين ومن العرب تحديدا وبحسدهم هذا فإنهم رافضين للحق لأن الحسد يجادل عن الباطل فلقد استكثروا على العرب نعمة الإسلام. فكانوا يقللون الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حضرته وأثناء خطبه والدليل قوله عز وجل: {ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} (المجادلة، الآية 08) ، وكانوا لعنهم الله بكفرهم يسعون إلى بث العداوة بين المسلمين ويحاولون الإيقاع بينهم وقد أنزل الله في حقهم {قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون} (آل عمران، الآية 99)

3:اليهود في العصر الأموي:

[1] أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، دار الفكر، لبنان، بيروت، 2001، (د.ط)، ص122.

واستفاد اليهود في العصر الأموي من الفتح الإسلامي للأندلس وراحوا يهتمون بأدبهم ومؤلفاتهم وعلومهم في شتى المجالات.

«ولم يتحسن وضع اليهود في المجتمع إلا مع الفتح الإسلامي إذ كان اليهود يتمتعون بحريتهم في ممارسة نشاطاتهم، مقابل دفع الجزية وكانت بعض مدن الأندلس أغلبية سكانها يهود. كمدينة غرناطة، وعرفت بغرناطة اليهودية أو قصر اليهود لكثرة اليهود بها»[1] .

وكعادتهم التي يغلب عليها المكر والحيلة والخيانة مع كل متعاطف معهم فلقد غدروا بالمسلمين«ورغم تسامح الإسلام مع اليهود. إلا أنه كانت هناك بعض الجماعات اليهودية طرفا في عملية الغزو التي قام بها النصارى لاسترجاع الأندلس، وهذا الموقف ليس بالأمر الغريب، لتميز طبيعة اليهود بالخيانة وعدم الوفاء، كما كان لهذه الجماعات اليهودية دور أساسي في النظام المالي، وفي تزويد الحكام الجدد ما يريدون من أموال بفضل إشرافهم على جمع الضرائب حيث كان 22% مندخل مملكة قشتالة عام 1294م مصدره الضرائب المفروضة على اليهود ومنهم من تولى منصب الوزراء كاليهودي سمؤال هاليفي وزير بطرس الرهيب[2] »

5:اليهود في العصر العباسي:

وكانت أحوالهم في ظل الدولة العباسية«متقلبة لا تستقر على قاعدة واحدة من السعد او الشقاء بل كانت تتغير بتغير العمال والحكام والسلاطين إذ لم يكن هناك قوانين مرعبة يتخذونها

[1] فاطمة بن عمامة: اليهود في المغرب العربي الإسلامي ، دار كنوز الرحمة، الأبيار، الجزائر، 2011، (د.ط)، ص47

[2] المرجع نفسه، ص48

دستورا للإدارة بل كانت إرادة عامل البلد او السلطان لا إقليم العامل الوحيد في تدبير شؤون البلد وأحوال العباد».[1]

يكشف يوسف غنيمة هنا أن اليهود في فترة العباسيين كانت تحكمهم قوانين الخلفاء والحكام العرب.

يقول يوسف غنيمة في كتابه نزهة الاشتياق في تاريخ يهود العراق «كان معظم الخلفاء العباسيين على جانب عظيم من التساهل مع هذا القوم وأكثرهم تساهلا المأمون فإنه رأف برعاياه واستفاد من مواهبهم العقلية وذخائرهم العلمية على اختلاف أديانهم وتباين مذاهبهم وأطلق الألسنة والأقلام حرة تتكلم ما تشاء وتسطر ما تريد لا ينازعها منازع ولا تسيطر عليها سلطة غشوم فضاهت حرية النشر والكلام في رصانة الحرية المستتبة اليوم بين ظهراني الأمم العريقة في الحضارة»[2] ، ويبدو أن تساهل المأمون مع اليهود في العهد العباسي كان ظل سياسة ذكية وحيلة حذقة منه لاستغلال مواهبهم والكسب منهم مع ابقائهم تحت سلطتهم ليساهموا في رقي الدولة.

6:اليهود في العصر الحديث:

وتعود جذور الصراع العربي الإسرائيلي الى الوعود الكاذبة التي أعطتها بريطانيا لليهود والعرب خلال الحرب العالمية الأولى، ومن خلال هذه الوعود ارتفعت نسبة تواجد اليهود وممتلكاتهم

[1] يوسف رزق غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ اليهود والعراق، مطبعة الفرات، بغداد، 1924، (ط1)، ص 120. 121

[2] – يوسف رزق غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ اليهود والعراق، مطبعة الفرات، بغداد، 1924، (ط1)، ص 108.

في فلسطين فدنسوها وأقاموا دولتهم فيها، ولكن هذه الدولة لا تقوم إلا بتهويد فلسطين والقضاء على معالمها العربية، فقاموا بالاعتداءات والحروب وعلى سبيل الذكر نكبة 1943. واعتمدوا الخطط لاستيلائهم على هذا البلد «وأن يطردوا العرب من أراضيهم وقراهم ليسلموها للمهاجرين اليهود الذين يتدفقون على فلسطين وأن ينسفوا المدن والقرى العربية وينشؤوا مكانها مستعمرات يهودية» [1]ومن بين الأماكن المقدسة التي دمرها هؤلاء جامع النبي داوود في القدس. وحولوه إلى كنيس يهودي.

وبعد نهبهم للأراضي العربية ومنحها لليهود اتجهوا الى السكان فظلموهم وعذبوهم، وسلبوهم حريتهم في العيش، ووجدوا في قتل العربي متعة وعبادة ومن بين المجازر التي ارتكبوها في حق العرب (مذبحة شرفات 1951، مذابح عيد الميلاد 1952 ...)

وبعد انتهاء العدوان الثلاثي على مصر 1959 أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية تدعم اليهود وإسرائيل وبهذا الدعم أصبحت إسرائيل قوية وتريد بسط نفوذها والاستيلاء على أكبر عدد ممكن من أراضي العرب وهذا ما حققته بفوزها في الحرب الاسرائيلية العربية، فاحتلت مدينة القدس القديمة وقطاع غزة وصحراء سيناء والضفة الغربية لنهر الأردن ومرتفعات الجولان السورية ولم تتوقف الا بعد سيطرتها على المنابع النفطية التي تسيل لعاب الدول الغربية، وفي هذا الصدد يقول رئيس المخابرات الإسرائيلية إيلي زعيرا:«.. أما وجهة النظر الثانية فتقتضي دائما بأن أغلبية الجيش النظامي يجب أن تكون مكونة من مجندي الخدمة الإلزامية، والمبررات

[1]عبد الله التل: خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية، قصر الكتاب، البليدة، الجزائر، 1989، (د.ط)، ص 345

هي مبررات اقتصادية... ومبررات قومية تربوية... ومبررات عسكرية استراتيجية ... والخدمة الإلزامية التي تنطبق على كل السكان... » [1] حيث كان الجيش الإسرائيلي يجند العرب في صفوفه رغم انخفاض نسبة السكان في البلدان العربية في ذلك الوقت.

وجاءت حرب أكتوبر 1973 وأظهرت تميز الجانب العربي وتفوقه في مجال التخطيط العسكري، وهذا ما أحرج إسرائيل ومن يدعمها، ولوحظ توحد العرب ولحمتهم ضد إسرائيل حيث ظهر العرب بقوة بعد المعاناة في نكسة 1967 فلقد اهتزت صورة الجيش المصري خاصة والجيش العربي عامة «استهزاء الناس من كل رجل يمر في الطريق مرتديا البزة العسكرية وكثرت النكت على الجنود المصريين الذين اهتزت روحهم المعنوية بشدة وهو ما جعل مهمة التهيئة النفسية للجيش على غاية من الصعوبة والتعقيد» [2] فيما كانت إسرائيل وقواتها تتمتع بكفاءة عالية وعتاد حربي قوي ولهذا تطلب رد الاعتبار العربي الكثير من المال والجهد فلا يداوي جراح الهزيمة ومرارة الذل الا حلاوة النصر الذي تم في 1973.

ولم يصعب على اليهود اتخاذ المناهج والخطط لإبعاد العرب عن دينهم وذلك بنشر الأدب الرخيص والتحكم في السنيما والمسارح التي تعتبر مقصد فئات كثيرة من المجتمع إذ حاولوا إقناع المجتمع بأن الدين عبارة عن تراث غير قابل للتغيير مع التطورات الحياتية، وكانوا أكبر داعم للثورة الشيوعية لخدمة مصالحهم ضد الطبقة الفقيرة من أجل استغلالها تحت ما يسمى بالثورة الفكرية، وحين تراخى العرب وتفرقت كلمتهم وتجزأت أوطانهم، هاجمتهم ذئاب

---

[1] مذكرات إيلي زعيرا: حرب الغفران، تر: توحيد مجدي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1997، (ط1)، ص. 36 . 37

[2] أنيس بن علي بن عمر: حرب أتوبر عام 1973، أكاديمية دراسات اللاجئين، فلسطين،(د.ت)،(د.ط)، ص11

الروس المتوحشة في حرب صليبية مشحونة بعوامل الحقد القديم الذي يقره اليهود، ومن خلال هذه الحرب مارس هؤلاء الكفار مظالم في حق المسلمين تقشعر لها الابدان واستعبدوا أوطانها وأمجادها وعلومها، واستبدلوا ذلك بالشقاء والعبودية والفناء التدريجي وتم كل ذلك في غفلة من الأمة العربية والمسلمين كافة.[1]

ومن صفات اليهودي أنه مخادع ماكر اذ دخل اليهود فلسطين بحجة التجارة أو بحجة الهروب من الاحتلال العثماني، «وفي الوقت الذي حافظ فيه العرب والمسلمون، خلال ثلاثة عشر قرنا وزيادة، على حرمة المقدسات المسيحية واليهودية في فلسطين وسائر بلاد الشرق الأوسط، وصانوها، وضمنوا للمسيحيين واليهود ممارسة شعرائهم الدينية بكامل الحرية، فان المستعمرين الغربيين واليهود قابلوا العرب من مسلمين ومسيحيين بالجحود ونكران الجميل، ثم بالعدوان الأثيم على العقائد والمقدسات الدينية» [2] ومما ينشغل به المستعمر وإبعاد المستعمر عن دينه وعقيدته، كما يسلبه حريته ويسرق علمه ليدخله عالم الجهل والظلمات.

ولا ينقص اليهودي صفة الخداع فقد كان اليهود يخادعون الله والمسلمين اذ اتخذوا من الإسلام دينا لهم لخدمة مصالحهم الشخصية أو للتهرب من دفع الجزية فيعلنون إسلامهم أمام المسلمين ولكنهم في حقيقة الأمر ليسوا من المسلمين في شيء.

ومن القصص المتواترة الكثيرة عن ذلك، تلك القصة التي كان يقوم فيها الجار اليهودي بإلقاء فضلاته أمام منزل الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يعبأ الرسول ذلك. فكان يأخذها ويلقيها

---

[1] ينظر: عبد الله التل: الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، قصر الكتاب، البليدة، الجزائر، 1989، (ط2)، ص111

[2] محمد الغزالي: اليهود المعتدون ودولتهم إسرائيل، دار القلم، دمشق، سوريا، 1999، (ط1)، ص190

بعيدا، ثم حدث أن مرض هذا اليهودي فلاحظ الرسول . الذي لم يعلم بمرض اليهودي . أنه لم ير فضلات اليهودي منذ أسبوع، فسأل عنه، فأخبره الصحابة بمرض اليهودي، فأصر الرسول على زيارته، فلما عاد الرسول اليهودي في منزله كان ذلك، درسا عمليا في حق الجار، وكان سببا في اعلان هذا الرجل إسلامه أمام الملأ. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الصورة النمطية السلبية التي أخذت على اليهودي منذ ذلك العصر [1]. بل وأيضا دينهم كانوا يستخدمونه لأغراض شخصية ومثلا اليهود يوم عطلتهم هو السبت وهم يسمونه بالعيد. ومن المعروف أن اليهودي لا يقضي حوائج الناس فيتحجج بالعيد ويقول كما في المثل الشعبي المصري "احتجت لليهودي فقال اليوم عيدي" وكما قال الراغب الأصفهاني في كتابه محاضرات الأدباء "أحوج ما تكون إلى اليهودي فيقول اليوم السبت" وكما يرى المصريون أن ظاهر اليهودي ليس كباطنه أي أنه كثير الكذب فيطلقون المثل الشعبي "زي قراية اليهود... تلثيها كذب" ويقصدون بقراية اليهود كتابهم المقدس الذي حرفوه [2].

«إن الغدر اليهودي طبيعة جنس، وخصائص دم، وميراث أجيال، وحقيقة لا يمكن إنكارها، ولا التغاضي عنها، واليهود يعلمون في أنفسهم هذا» [3]، ولا يزال الصراع العربي اليهودي قائم الى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

7:محاولات الكتاب العرب كسر الصورة النمطية عن اليهود:

[1]– ينظر: خالد عبد الحليم أبو الليل: صورة اليهودي في الأدب الشعبي العربي، المجلس الأعلى للثقافة، 2012،(د.ط)، ص111

[2]ينظر: المرجع نفسه، ص42

[3]محمد الغزالي: اليهود المعتدون ودولتهم إسرائيل، ص290

وفي رواية "أنا وحاييم" للحبيب السايح نلمس رؤية جديدة في رسم صورة اليهودي الذي لطالما كان في المخيال الثقافي العربي مخادعا محتلا، مغتصبا ويعتبر الآخر (اليهودي) مرفوضا جملة وتفصيلا وذلك ما كثف النزاعات بين الانا والآخر والحروب التاريخية، ومنه فالراوي يحاول رسم وترميم صورة اليهودي، فالمواطن اليهودي في الرواية جاء طاهرا مثاليا لا تشوبه شائبة، اليهودي مؤمن بقضية شعب مستعمر، اليهودي شارك في الثورة بماله ومنصبه وصيدليته فكان يبعث الدواء للمجاهدين ويستقبلهم خفية ويداوي جروحهم، وينقل لهم المعلومات.

لكن بعد الاستقلال ظهرت ملامح تشكل هوية جديدة ترفض الآخر المختلف في الدين، وهذا الاعتقاد يعتبر اعتقادا خاطئا يظلم الآخر على حساب المسلمات السابقة. وهذا ما تجلى في عداء بعض الأهالي لحاييم بالهجوم على بيته ومحاولة قتله. ومن صدهم هو صديقه أرسلان الجزائري معتبرا حاييم مواطنا جزائريا، كباقي المواطنين الذين حاربوا الاستعمار الفرنسي، وهنا يتجلى الموضوع الذي سلطت عليه الرواية الضوء، هو تسليط الضوء على فكرة التعايش بين أفراد الوطن الواحد، مع تجاوز المعتقدات الدينية أو العرقية، خاصة وأن حاييم رفض الهجرة الى فلسطين وأصر على البقاء في الجزائر معتبرا أنها بلده الذي يدافع عنه.

الفصل الأول: تمثيلات الأنا والآخر في رواية "أنا وحاييم"

1. مجتمع الرواية

2. حاييم اليهودي وتمزق الهوية

3. المسخ الاستعماري

تمثلات الأنا والآخر في رواية "أنا وحاييم"

1-مجتمع الرواية وتمثلات الهوية: رواية "أنا وحاييم" من الروايات التي انعكس فيها الواقع انطلاقا من جملة رؤى وتصورات الراوي، ليبرز من خلالها أفكاره بهذا يبنى مجتمع الرواية فدليل هذا الكلام هو «ارتباط مفهوم الرواية بالحياة أو المجتمع بهذا الشكل جعلها ذات طبيعة خاصة وذات وظائف محددة، جعلها صورة خيالية مركبة من أشخاص وأفعال وأقوال وأفكار، من جنس الأحداث التي تجري في المجتمع وعلى شاكلة الأشخاص الفاعلين فيه، وتعبر تعبيرا دقيقا وصادقا عن واقع الصراع الإنساني وتكشف عن حقيقته حسب وجهة نظر الكاتب ورؤيته الخاصة» [1] .

الرواية التي بين أيدينا قامت على نقل الأحداث التاريخية بذكر أحداث وتواريخ مهمة للاستعمار الفرنسي في الجزائر «فهو ينظر بإحساسه الفني إلى التاريخ على أنه المادة التي يستطيع عبرها تصوير رؤيته للواقع، والتعبير عن تجربة من تجاربه، وهو بذلك لا يكتب التاريخ، بل يقيم له، ويحاول خلقه من جديد على وفق رؤيته» [2] هذا يعني استرجاع ذكريات حدثت تحت ظل الاستعمار الفرنسي بكل وسائل القمع والظلم

---

[1] عبد الرحيم محمد عبد الرحيم: دراسات في الرواية العربية، دار الحقيقة للإعلام الدولي،(ط1)، 1990، ص3

[2] – نور الهدى غرابة، سليم كرام: المرجعيات الثقافية وبناء المتخيل السردي قراءة في رواية أنا وحاييم للحبيب السايح، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مج1، ع1، 2021، مخبر نظريات القراءة ومناهجها، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ص232

التي مارسها على شعب أعزل، إلا أن هذا الظلم لم يمنع أن يكون الشعب في وحدة متكاملة ومتسامحة وذلك يتجلى في شخصية اليهودي حاييم وعلاقته بأرسلان المسلم فالمرجعية مطلوبة في العمل الروائي «لأن التاريخ والرواية يسعيان إلى توضيح التجربة البشرية من خلال وضعها في صيغة سردية بحيث تظهر الأحداث ضمن مسار زمني مترابط وذي دلالة» [1] يعني نادر كاظم بأن التاريخ أهمية كبيرة فهو يدعو إلى الرجوع للتاريخ والتعمق فيه لتنتعش الذاكرة وتتعرف الأمم على ماضيها. فهذا الامر يعطي المادة الحية لتأليف النصوص في قالب أحداث متسلسل ذات محتوى ومعنى.

من المراحل التاريخية التي وردت في الرواية.

الجزائر سنة 1944 تحدث الحبيب السايح فيها عن الحياة التي كان يعيشها سكان الجزائر خلال الاستعمار الفرنسي حين كان يمارس عليهم سلطة التمييز العنصري فيقوم باضطهاد السكان الأصليين للجزائر، ويطلقون عليهم العديد من الأوصاف الدنيئة ويمنح يهود الجزائر الجنسية الفرنسية ورتبة مواطن فرنسي لخلق فجوة بين السكان وجاء ذلك « فقد كنت أمام سلطة فرنسية لها الحق علي في معاقبتي بالتوقيف أو

[1] نادركاضم، الهوية والسرد، دار الفراشة للنشر والتوزيع، الكويت،(ط2)، 2016، ص128

الطرد. ثم سألني لماذا؟ ولا شك أن غلالة اكفهرار كانت قد انتشرت على وجه مسيو ويل وهو ينطق عبارة "هاه، لاراب !" » [1]

في موضع آخر نجدها «ولكن قل لي، ما طبيعة هذه العلاقة التي تربطك بمسلم غير فرنسي أنت حاييم بنميمون مواطن فرنسي ! أعلى من أرسلان حنيفي درجة فكيف تقبل مصاحبة أنديجان مثله والحديث إليه بتلك اللهجة كأنه أحد أفراد عائلتك» (الرواية، ص34) .

غير أن هذا التمييز اتضح على وقع انتهاء الحرب العالمية الثانية وخروج الشعب الجزائري للمطالبة بالحرية ومبادئ الاستقلال «وأعلمتنا أن الحرب العالمية الثانية وضعت أوزارها (...) أن وصول أعمال عنف دامية كانت تجرى في اليوم نفسه بين الأهالي في مدينة سطيف مطالبة بالحرية» (الرواية، ص25،26)

حيث زرع هذا لدى الأهالي والشعب الجزائري التمسك بمبادئ دينهم وأرضهم وتشكيل المنظمة السرية التي جعلتهم يؤمنون بضرورة التحرر والسعي وراء الكفاح المسلح.

اشتدت الظروف وتفاقمت الأوضاع واستمر العنف والظلم، فالرواية عرضت أهم المحطات التاريخية في تاريخ استعمار فرنسا للجزائر بأسلوب جديد عن الواقع. فكان واقع اندلاع الثورة التحريرية أسمى ما وقع في الجزائر وتردد في آذان الفرنسيين « ولو

[1]– الحبيب السايح: أنا وحاييم، دار ميم للنشر، الجزائر– مسكيلاني للنشر والتوزيع، تونس، (ط1)، 2008، ص22

أن ما حدث في ليلة أول نوفمبر من تلك السنة، قبل اثني عشر عاما، لم يقدر له أن يحدث، أكان لي أن أجلس الآن في هذه المكتبة بكامل حريتي» (الرواية، ص113).

حُدد مصير الجزائر من الاستعمار فأدى إلى كثرة المواضيع في الساحة الأدبية الجزائرية وأكثرها موضوع "الثورة" التي صارت متداولة بكثرة، فتتواصل الحوارات بين أرسلان والطلبة في تجمعات الجامعة بمشاركة حاييم في معظمها

فكانت في صفحات الرواية في «وبتوالي الأيام، ازددت شعورا بأني أضحيت محل عناية خاصة من زملاء لي صاروا لا ينحرجون في مواجهتي بأسئلتهم (...) عن رأيي في نتائج سياسة الإدماج وفي الانتخابات؛ عن وجهة نظري في الشائعات التي تسري حول إنشاء تنظيم سري* يعد لعمل مسلح» (الرواية، ص116)

أما في 1954 تأسست اللجنة الثورية للوحدة والعمل وبعد تسلسل واستمرار الأحداث ينهي أرسلان دراسته الجامعية و يلتحق بالثورة بعد شعوره بالظلم والاستبداد اتجاه الأهالي وأن من حقهم الدفاع عن حريتهم وكرامتهم إلا أن الراوي أراد أن يوضح في روايته عن موقف حاييم اليهودي الذي عاش في الجزائر ودعم الثورة رغم ظلم الاستعمار والأهالي له وفكرتهم الخاطئة عنه «اقترب مني خيط الاتصال وأبلغني المنظمة المسلحة السرية* أحرقت صيدلية حاييم» (الرواية، ص197).

الصيدلية نفسها التي كانت تزود الثوار والمجاهدين بالمساعدات الطبية في الجبال فقط لأنها ملك حاييم اليهودي.

توالت أحداث الرواية تحت فكرة الإصرار على تحقيق الحرية وجعلها جمهورية جزائرية مستقلة تقرر مصيرها بنفسها.

فصورت الرواية أجواء الثورة ورد فعل فرنسا على الثوار الذين تصفهم بالخارجين عن القانون والمجرمين يأتي هذا الوصف في «عمليات دامية في مناطق كثيرة من الجهة الشرقية للبلاد نفذها خارجون عن القانون» (الرواية، ص124).

استفاد الراوي من تاريخ بلاده حيث «يشكل تاريخ الجماعة منطلقا لتحديد هويتها، إذ تتجذر هوية الجماعة في تاريخها ويبرز تاريخ الجماعة وآثاره في صيغ مكتوبة كما يتجلى في تقاليد الجماعة، وأساطيرها وحكاياتها وينطوي ذلك التاريخ أيضا على الأحداث الفردية والجمعية وعلى صورة أبطالها التاريخيين، كما يشتمل على صورة الحياة السياسية للجماعة وآثارها، وعلى تقييم لأهمية تاريخ الجماعة الجمعي وأثره على تنظيم الوسيط الحيوي والبنية الديمغرافية والنشاطات الراهنة، والبنية الاجتماعية، وأخيرا الآراء ، الاتجاهات ، المعايير السلوكية، وموروثات الماضي» [1].

[1] إليكس ميكشيللي: الهوية، تر: علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، (ط1)، 1993، ص23.

رواية "أنا وحاييم" عرضت محطات من تاريخ الجزائر بداية من استعمارها إلى اندلاع ثورتها التحريرية وصولا إلى إعلان الاستقلال وجاءت فرحة النصر في الرواية «ها هي هتافات «تحيا الجزائر» ترفع من وسطهم، تتخلله زغاريد قوية وحادة كأنها من حناجر نحاسية» (الرواية، ص219)، فقد كانت أجواء الحرية لا مثيل لها في كامل تراب الجزائر.

عمد الراوي على استرجاع أحداث من تاريخ الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي بالرغم من سوء الأحوال الاجتماعية والثقافية والاقتصادية فتمسك الشعب الجزائري بمبادئ التسامح والتعايش السلمي وتراثه وثقافته وعاداته وتقاليده ووحدة ترابه إلا أن ما يعاب على الحبيب السايح في روايته أنه تجاهل الأهالي المسلمين الذين ضحوا بدمائهم من أجل الاستقلال وجعل من يهود الجزائر عنصرا ذا دور فعال في الاستقلال ومجّدهم وأشاد بأعمالهم.

تعد رواية أنا وحاييم من النماذج الروائية التي انفتحت على العديد من المرجعيات والأنساق المعرفية المستقاة من التاريخ والمجتمع والدين والهوية، حيث عمد فيها الراوي إلى إبراز الهوية الوطنية في ظل الاستعمار الفرنسي و صور الخصوصية الثقافية لمجتمع الرواية بجملة من التفاصيل المتميزة والمتنوعة، فالثقافة هي «النسيج الكلي المتمثل في الأفكار والاتجاهات والعادات ومنظومة القيم وطريقة التفكير والعمل ونمط

العيش وما يتضمنه من سكن ومشرب ومأكل وعلاقات تؤسس التواصل بين الفرد والفرد، وبين الفرد والجماعة وبين الفرد وخالقه» [1]

بالرجوع إلى الرواية نجد الراوي وظف مرجعيات ثقافية من الحياة اليومية جاء ذلك «تلك اللحظات التي قضيتها مع جدتي في الحوش غالبا أستمع إليها تروي لي قصص الجن و الغيلان والأرواح والسحرة، كاشفة عن ساقها تدير عليها مغزل الصوف، أو تحمص القهوة وتدقها في المهراس المعدني، أو تحضر لي أكلة الرقاق» (الرواية، ص 26، 27).

إن القصص والحكايات في المجتمع الجزائري موروث شعبي ينتقل من الأجداد إلى الأبناء وغزل الصوف وتحميص القهوة وطهي الرقاق من عادات المرأة الجزائرية التي تتوارثها الأجيال عن بعضها البعض، كما نجد أيضا «تغدى حاييم معي في بيت جدتي ربيعة. وكان الغداء طبقين من دجاج محمر ببطاطا مقلية وكسكس بالزبيب والرايب حضرتهما بيديها خصيصا لنا بالمناسبة وتعشيت مع حاييم في بيتهم عشاء من طبق زيتون بلحم الأرنب حضرته أمه زهيرة» (الرواية، ص36).

[1]– شرقي رحيمة:الهوية الثقافية الجزائرية وتحديات العولمة، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع11، جوان2013، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة– الجزائر، ص192.

وظف الراوي الأطباق التقليدية ليبين الثقافة الجزائرية في المأكل وعهد على ذكر الاختلاف في الأكل بين منزل حاييم وأرسلان بالرغم من ذلك فتعايش موجود رغم الاختلاف.

الراوي دقق كثيرا حتى في الملابس على اعتبار أن اللباس له دور مهم في وضع مكانة الشخص ووصف النساء وزينتهم في ذلك العهد نلاحظها «كما نوعية البرنوس وما تحته والعمامة ولونها؛ مما يرفع بعضهم فوق بعض ويمنح التفصيل والتمييز. وكذا وصف زينة النساء بالكحل والمسواك والمسك، وعلامات أوشامهن في وجوههن العامرة البيضاء وحليهن الفضة في آذانهن وصدورهن ومعاصمهن.» (الرواية، ص41). فالبرنوس يعتبر لباس تقليدي رجالي مثله مثل العمامة فهو رمز القيمة والشموخ، أما الوشام أو الفضة بالنسبة للنساء في ذلك العهد زينة لهن ويميز كثير من الجدات في الوقت الراهن.

يذكر الراوي جزءًا من العادات اليومية للرجل الجزائري «أستيقظ فجرا قدت حينا الجرار بمقطوعته وحينا الحاصدة. وذرعت المساحات المحصودة متسيبا، فأحصيت، وأنا أتصبب عرقا، أكياس القمح والحنطة والشعير وربطات التبن قبل أن يشحنها الخدم. تناولت تحت ظلها طعامي، مفترشا التراب» الرواية، ص42. فتلك العادات من يوميات الرجل الجزائري خاصة الشيوخ والأجداد.

في الرواية يقول أرسلان «وأحرجت مواعين الفخار والملاعق الفضية وكانت لا تخرجها إلا للخاصة من الضيوف أو في المناسبات وحضرت لي... بغرير ومسمن ومبسس ومقروض بالعسل وشربة أو حريرة براس الحانوت ومطلوع بالزبدة وكبدة مشوية على الجمر وبيض بلدي مقلي بالكمون ورفيس بالشاي وكسكس بمرق لحم الحجل» (الرواية، ص51، 52) وكل هذه الألوان من الطعام هي أكلات جزائرية تقليدية، تطبخها الجدة ربيعة لحفيدها، وهنا نجد أن الراوي تطرق إلى فكرة تفعلها معظم النساء الجزائريات وهي تخزين الأواني الجميلة للضيوف دليل على مكانة الضيف المتميزة، وأيضا يذكر التوابل بمسمياتها المميزة "رأس الحانوت" و "الكمون" وهي من أهم التوابل المستخدمة في الأطباق الجزائرية.

ومن العادات التي يذكرها الحبيب السايح على لسان أرسلان احتفال الناس بنجاح الطفل وختانه «دوى بارود الخيالة في ميدان المزرعة ... وبالتأكيد لختاني الذي لا أذكر منه سوى العباية والشاشية والبليغة وقطعة كتان معقودة على جلدة الحشفة المتيبسة...» (الرواية، ص54) فالختان من السنة النبوية الشريفة صارت من ضمن العادات والتقاليد والموروثات الشعبية التي تحظى بعناية المجتمع الجزائري واهتمامه، ويحتفى بها بإقامة الأعراس والحفلات والولائم والبارود، تناول أرسلان الطعام «على الزربية في قصعة خشبية صغيرة» (الرواية، ص102)، إذ الجلوس على الأرض وتناول الطعام على الزربية عادة لاتزال إلى اليوم ولها من التمتع بالطعام نصيب.

يذكر الراوي نبتة الشيح هذه العشبة المميزة وخاصة في عادة إضافتها للقهوة فيقول «بأن أوردتي صارت عروقا وأن جسدي تحول قطعة من الأرض التي أنبتتها فارتبط أريجها من يومها في ذاكرتي» (الرواية، ص104 .105)

ويمكن للقارئ أن يلاحظ في الرواية عادات مميزة عديدة أيضا منها مناسبة عيد المولد النبوي ومشاركة عائلة حاييم في مثل هذه المناسبات، «لا أنسى أيضا مناسبة المولد النبوي والديك المعروف بريش نوار الفول الذي ذبحه لنا موشي بوحاييم» (الرواية، ص108).

أيضا يذكر لنا تفاصيل البناء المميزة «...إلى بيوت مدينة تلمسان الأولى ذات السقوف القرميدية الحمراء» (الرواية، ص141).

وفي المقطع السردي نفسه يذكر "مقام سيدي بومدين الضريح المسجى بكساء أخضر ذي حاشية كتبت عليها آيات باللون الذهبي...".

كما نجد الراوي قد وظف ألفاظا من العامية الجزائرية فجاءت اللغة بسيطة سهلة تعطينا فكرة عن تصرفات والد أرسلان تجاه الفلاحين المتهاونين» "أنتم وجوه الشر! تركتم نصف صوف الغنم وشعر العنزي وين تعلمتم الزح؟"(...)"شبعت ورقدت يا الراعي! وخليت الذيب أكل النعجة !هيا أغرب عن وجهي!"» وأيضا قوله: « وجاي

تشكي ليمن اليهودي المرابي للي أخذ أرضك ؟... وجهك وجه خماسة! » (الرواية، ص 192).

ولعل غرض الراوي من تضمين العادات والتقاليد الجزائرية في الحكي كالأكل واللباس والمناسبات المختلفة يؤكد قوة الرابطة بين أرسلان العربي وحاييم اليهودي واشتراكهما في الانتماء إلى المجتمع الجزائري، فقد عاشا في طقس اجتماعي واحد، وتقاسما حياة واحدة، ورغم الاختلاف الديني إلا أن التعايش السلمي بينهما كوّن علاقة مثالية شهدت بها الرواية وقدّمت للقارئ صورة ناصعة في التمسك بالهوية الوطنية بمميزاتها وتفاصيلها.

يقول محمد الزحيلي: «من الثابت تاريخيا أن فكرة التدين لم تفارق البشرية، ولم تخل منها أمة من الأمم القديمة والحديثة، لأنها نزعة أصيلة متلازمة للناس جميعا» [1]

من قول الزحيلي هذا نستنتج أن الحبيب السايح قد وظف الدين في روايته كعامل مهمّ شكّل حافزا قويا في توجيه أحداث الرواية، حيث أسس فعل الحكي على مبادئ وقيم راسخة في الدين الإسلامي والدين اليهودي، لأن « الدين هو أحد منابع الثقافة

[1]– محمد الزحيلي: وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية،(ط1)، 1991، ص33.

والمرجعية التي يلجأ إليها بعض الكتاب حينما يفكرون في كتابة نص ما، تبعا لمجموعة من القيم والمبادئ التي يؤمن بها هذا الكاتب أو ذلك»[1]

وإذا كانت جميع الأديان السماوية تحثّ على التسامح فإن الحبيب السايح حاول توظيف هذه القيمة الإنسانية في روايته، وغايته تحقيق الرغبة لدى القارئ في التخلي عن العنصرية والعداوة ونبذ التعصب الديني، كل ذلك من أجل تحقيق التعايش السلمي والانفتاح على الآخر، «ولا وقع يوما أن حاول أحدنا رد الآخر عن دينه، واجدين ذلك من سلوك عائلتينا ومن غيرهما من المتجاورين من المسلمين واليهود في الدرب خاصة» (الرواية، ص123)

فرغم الاختلاف الواضح في مقدساتهم إلا أنهم تغلبوا على الصورة النمطية التي يخفى بها التاريخ الحالي.

يقدم الراوي صورة على أن المسلمين ويهود الجزائر القديمة كانوا يتقاسمون نفس المبادئ والعادات المحافظة مثل عدم أكل اللحوم الغير مذبوحة واللباس الفاضح المكشوف. نجده في الرواية «لا أعتقد أن في دينك كما في ديني عريا بهذا الذي كان عليه تمثال مدرستنا! (...) بصفوفنا بأهل الحرام العري حرام. والخنزير حرام. وأكل اللحم من غير ذبح حرام !» (الرواية، ص33، 34) .

[1]– نور الهدى غرابة، سليم كرام: المرجعيات الثقافية وبناء المتخيل السردي قراءة في رواية أنا وحاييم للحبيب السايح، ص239

النص الروائي اتجه لتقديم صورة عن العلاقة بين الديانتين اليهودية والإسلام في الممارسات الاجتماعية المتشابهة دون الإخلال بالتوازن المعيشي وهذا ما جاء على لسان الراوي: «وجدت حاييم دخل سريره وبين يديه كتاب التوراة الذي غالبا ما يقرأ منه حين يكون في حالات من الحزن والتوتر» (الرواية، ص123).

يقصد الراوي هنا أنه كما في الدين الإسلامي عندما يكون الشخص حزينا فإنه يلجأ إلى قراءة القرآن ليصيب الراحة والطمأنينة ، فكذلك اليهودي حاييم يفتح الكتاب المقدس عندما ينتابه القلق بحثا عن الانشراح والراحة النفسية.

والسرد عبر تمفصلاته يظهر التسامح كقيمة نبيلة وسلوك إنساني في التفاعل الاجتماعي بين شخصيات الرواية على اختلاف دياناتهم، فقد كانوا يهنئون بعضهم في أعيادهم الدينية التي لا تغيب عنهم «جدتك وأمي تتزاوران وتتبادلان أطباق الأكل والتحيات والتهاني في عيد الفطر كما في يوم كيبور» (الرواية، ص146).

تعايش أتباع دينين مختلفين ضمن رقعة جغرافية واحدة هو أمر موجود في القديم وفي الحاضر، إلا أن الفكرة التي قام عليها فعل الحكي أراد الحبيب السايح من خلالها ربط الثقافة الجزائرية الإسلامية والعادات والتقاليد بالثقافة اليهودية وجعل منها عنصرا مشتركا يمكّن من التعايش المشترك، مع أن مسألة التعايش بين المسلم واليهودي على أرض الواقع لا يبدو بالصورة التي عليها في الرواية.

رواية أنا وحاييم من الروايات الجزائرية التي تضم مرجعيات معرفية متعددة مستقاة من التاريخ والدين، وعالجت قضايا وطنية بارزة للتأكيد على الهوية الجزائرية على اعتبار أن «المجتمع الجزائري جزء لا يتجزأ من العالم العربي الإسلامي، وبالتالي فإن الهوية الجزائرية بالمفهوم الحضاري تعني الانتماء إلى الأمة العربية الإسلامية بكل مكوناتها .

محددات الهوية الجزائرية:

يعيش المجتمع الجزائري داخل فسيفساء من التعدد الثقافي فهو مجتمع عربي إسلامي» [1] جاء عنوان الرواية "أنا وحاييم" على شكل جملة اسمية تتضمن ضمير المتكلم أنا الدال على الذات الجزائرية (الأنا) التي تعود على أرسلان حنيفي أستاذ الفلسفة المسلم، وحاييم بنميمون الصيدلي اليهودي، ويكشف العنوان تلك العلاقة القوية بين الصديقين لكي ليبين من خلاله أن الأديان لم تكن عائقا في وجه الإنسانية جاء في صفحات الرواية «لا أشعر أني فرنسي وأرسلان مثل أخي» (الرواية، ص35).

و«بالرغم من وجود "الآخر" الفرنسي المحتل والمغتصب، يقابله الطرف الآخر النبيل والمسالم، اختلافه في العقيدة والجذر لم يمنعه من العيش المشترك تحت راية الإنسانية»

[1] شرقي رحيمة: الهوية الثقافية الجزائرية وتحديات العولمة، ص193، 194.

[1] فالمستعمر الفرنسي يشكل " الآخر" المختلف ثقافيا وحضاريا احتل أرض الجزائريين وشردهم وأصر على محو هويتهم لكن الجزائري تشبث بهويته التي دافع عنها بالسلاح.

لقد عرضت الرواية صورة مثالية عن تعايش الهويات باعتبار أن «الرواية من أكثر الفنون قدرة على تجسيد إشكالية الأنا والآخر» [2] فتمسك العائلات الجزائرية بعاداتهم وقيمهم يبدو واضحا في ثنايا السرد، فعادة الفانتزيا كانت حاضرة في الحكي «تمنيت لو أنه كان حاضرا معي ليشاهد فانتازيا الخيالية ويأكل مشوينا وسفة الكسكس بالعسل» (الرواية، ص42). وأنواع الأكلات والألبسة التقليدية حظيت باهتمام الكاتب، وكل هذا من علامات الارتباط بالوطن والتمسك بالهوية، فالمرأة «ترتدي الملحفة أو الحايك، لباسها التقليدي في الخروج والرجل في لباسه التقليدي...عباءة وكبوس أو شاشية على رأسه، وآخر بطربوش غالبا» (الرواية، ص157) .واللباس صورة دالة على التمسك بالتقاليد المتعارف عليها حينذاك، والواقع هو أن « الهوية تحقق شعورا غريزيا بالانتماء إلى الجماعة والتماهي بها، فتتبادل معها الاعتراف، وبذلك لا يمكن اختزالها في تعريف صاف وبسيط» [3] فهذا الأمر يتشكل في أدغال الذات حيث تمثلت الأنا الجزائرية بأرسلان حنيفي وحاييم بنميمون اللذين جمعت بينهما علاقة قوية رغم اختلاف الدين.«

---

[1]– نور الهدى غرابة، سليم كرام: المرجعيات الثقافية وبناء المتخيل السردي قراءة في رواية (أنا وحاييم للحبيب السايح)، ص236.

[2]ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، 2013، ص15.

[3]ماجدة حمود: جدلية الأنا والآخر، ص15.

فالذات. هنا وصلت إلى ذروة النضج والوعي بالمكان (الوطن) والهوية(...) المرتبطة بالواقع المعيش، والمستوى الاجتماعي في تلك الفئة وحضورها يدل على التمسك بالمكونات الأساسية الثقافة الجزائرية» [1]

وهذا يفسره كلام أليكس في تحديد الأنا الذي « يشمل على ذكر السمات الشخصية التي تتضمن القيم الأخلاقية، وخاصة الاستقلال وإدراك وحدة الأنا » [2] ف"الأنا" في الرواية يمثلها كل من أرسلان وحاييم، إذ كشفت عتبة النص العديد من الدلالات والغموض وبينت حالات الاضطهاد والغبن والحب والوطن والوطنية، وقد ربطها الحبيب السايح بعلاقة صداقة قوية رغم الاختلاف الديني بين أرسلان المسلم وحاييم اليهودي.

العلاقة أعطت صورة مثالية عن معنى التعايش بين الأطياف المختلفة، وقد حاول الاستعمار محاربة هذا التعايش بمنح الامتيازات لليهود في الجزائر هذا «أنك تتمتع بما يجعلك فرنسيا كامل الحقوق» (الرواية، ص70) .

[1]– نور الهدى غرابة، سليم كرام: المرجعيات الثقافية وبناء المتخيل السردي قراءة في رواية أنا وحاييم للحبيب السايح، ص237.

[2]إليكس ميشكيللي: الهوية، ص118.

وكما ذكر مصطفى المسعودي، فقد «كان طبيعيا أن يسعى الاستعمار بكل إمكاناته لتفكيك أبعاد هذه الهوية وإضعافها في الواقع وفي النفوس »[1]

إن فرنسا كثيرا ما حاولت جذب اليهود إلى صفهم بمنحهم امتيازات تحت ظل سياسة استعمارية كحق التجنيس لليهود، إلا أن حاييم رفض رفضا قاطعا وتمسك بهويته الجزائرية وشارك في ثورة التحرير أملا منه في أن يرى بلده الجزائر حرّا مستقلا.

ومن المعروف، فقد «برزت صورة الآخر المستعمر في الرواية الجزائرية كمغتصب يسلب الأرض ويستعبد الإنسان ويمارس جميع الوسائل الضغط على الناس وحملهم على القبول بالأمر الواقع»[2] ، فالمستعمر في الجزائر مارس أبشع السياسات الاستعمارية في جميع المجالات رغبة منه في محو الهوية الوطنية الجزائرية، فعمل «المستعمر الفرنسي على استنزاف طاقات الشعب الجزائري واستغلاله استغلالا بشعا كما عمل على إنكار وجود هوية وطنية جزائرية، (...) لأنه يحمل ثقافة معادية، يقف في مواجهة الإنسان الجزائري يدمر أحلامه ويقتله، ويبيده، ويحتل أرضه» [3] وجاء القهر والظلم الذي لقاه الجزائريون في قول الراوي «أني تحت حراسة أحد الجنود البالغين

[1]– مصطفى المسعودي: من نحن في زمن التحولات الكبرى؟ سؤال الهوية الحضارية: السياق المغربي نموذجا، دار ناشري للنشر الإلكتروني، 2012، ص36.

[2]– أوريدة عبود: فلسفة الآخر المختلف في الرواية الجزائرية، مجلة الأثر، ع27، ديسمبر 2016، جامعة تيزي وزو، الجزائر، ص122.

[3]المرجع نفسه: ص123

للجيش الفرنسي» (الرواية، ص185) وأيضا «لأنها الحرب. ثم إن آلان بورسييه قتل والدي مثلما يقتل أهلنا وأطفالنا» (الرواية، ص183).

ورغم أن المستعمر يحاول « أن يمحو هوية الأنا الوطني من أجل نشر ثقافته ولعنته وتكريس هويته. ولكن تلك الشراسة الاستعمارية كانت في المقابل عاملا مساعدا للأنا الوطني ليتحصن أكثر بهويته ويدافع عنها بكل ما يملك» [1]، بمعنى أن "الآخر" سعى بكل قواه إلى محو هوية الأنا إلا أن الشعب الجزائري تمسك بهويته وظل مخلصا لوطنه الجزائر رافضا الاحتلال.

[1] أوريدة عبود: فلسفة الآخر المختلف في الرواية الجزائرية، ص124.

2: حاييم اليهودي وتمزق الهوية:

حاييم شخصية يهودية وهو في الرواية دالٌّ ثقافيا واجتماعيا على الذات اليهودية بما تحمله من اختلاف هوياتي، وما تستبطنه من قيم ترتبط باليهود، وقد وظفه الكاتب ليحيل إلى المواطن الجزائري اليهودي الذي عاش في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي، ومن خلاله أحال أيضا إلى التيمة المهيمنة على السرد، ألا وهي الحضور اليهودي في الجزائر «فحاييم ابن اليهودي» (الرواية، ص17) المتدين اتخذه أرسلان المسلم صديقا له حيث قامت صداقتهما على التسامح واحترام الآخر المختلف دينيا وعدم محاولة أي منهما «رد الآخر عن دينه» (الرواية، ص123).

تتجلى هذه الفكرة في خطاب حاييم الذي وجهه لأرسلان «لا أعتقد أن في دينك كما في ديني عريا بهذا الذي كان عليه تمثال مدرستنا (...) لذلك يصفوننا بأهل الحرام! العري حرام. والخنزير حرام وأكل اللحم من غير ذبح حرام!» الرواية ، ص34. فنجد حاييم يعدد جملة من المسائل المحرمة في الإسلام كما في اليهودية وليس ذلك غريبا لأن اليهودية والإسلام كلاهما دينا سماويا، حيث المحرمات مشتركة بين حاييم وأرسلان على السواء.

وبالعودة إلى متن الرواية نجد الكاتب يشير ولو باقتضاب إلى قضية فلسطين على أنها وطن يعيش تحت الاستعمار هو الآخر، وأنه تعرض لعدوان إمبريالي صهيوني

أشبه ما يكون بالإمبريالية الأوربية، يقول أرسلان: « لتمركُزِ اهتمامي على أسباب الحروب ومخلفاتها وبالتوسعات الاستعمارية والاستيطان الجديد في فلسطين، ملتُ أكثر من حاييم، إلى مطالعة مجلة هيستوريا» (الرواية، ص101). وفي مواضع أخرى يشير السايح إلى مسعى الكيان الصهيوني إلى استقطاب اليهود أينما كانوا، وإغرائهم بما حرموا منه، أرض باسمهم، وقومية خاصة بهم تضمن لهم الكرامة، ودخل يضمن لهم مستوى معيشيا محترما، فـ " كولدا" الصهيونية كانت تمارس الضغط على حاييم اليهودي غير الصهيوني، من أجل مغادرته إلى فلسطين، حتى أنه قد بلغ بها المدى إلى جعل ذلك شرطا لقبولها الزواج منه، وهي التي تعرف تماما مقدار حب حاييم لها، ورغبته الشديدة في الزواج منها فهذه الفتاة «كولدا رفاييل كانت واحدة من أولئك الأوروبيات، من أصل يهودي، أولئك اللائي سارعن إلى المغادرة عشية وقف إطلاق النار» (الرواية، ص257) .

حاولت كولدا التأثير في حاييم لمغادرة الجزائر إلى أرض فلسطين «فقدمت له ضمانات، إن غادر معها إلى هناك بأن يحصل على محل لفتح صيدليته وعلى قطعة أرض لبناء مسكن؛ وربما على حقل زيتون أو برتقال (...) خففت له من شرط زواجها به إلى أن يغادر معها إلى المتروبول فحسب لكنه أبدى لها رفضا قاطعا» (الرواية، ص257) . ولما أبدى حاييم رفضه القطعي لشروطها واجهته بعنصرية صهيونية، تستهدف اليهود المعارضين للصهيونية. والتي تقوم بالأساس على الطعن في يهوديتهم. وكذلك فعلت

كولدا مع حاييم رغم تدينه، وتمسكه بتعاليم الديانة اليهودية بخلاف كولدا الليبرالية والعلمانية. وكأن اليهودية تطورت من ديانة إلى أيديولوجية سياسية، من يأبى تبنيها يطعن في مصداقية هويته اليهودية إن لم يجرد منها، «فواجهته، كما روى لي، بما لم يواجهه به عنصري من الأقدام السوداء أنفسهم، أنتم معشر التوشاقيم الأهالي ما أجبنكم! أنتم عار على اليهود في هذا البلد!» (الرواية،ص 251).

وقد واجهت كولدا حاييم في موقف آخر أيضا، يصفه حاييم في قوله: «وكم شعرت بألم الذبحة إذ سألتني إن كان بقي في نفسي شيء من كرامة اليهودي وحبه لأرض الميعاد يساعدني على لملمة شملي الممزق استعدادا للرحيل عن هذه الأرض اللعينة!» (الرواية، ص205).

ويشير الراوي إلى الأيديولوجية الصهيونية العنصرية في معرض ذم حاييم لكولدا ولغيرها من الصهاينة، ويظهر في قوله مخاطبا إياها: «أنت لاتبغين من مغادرتك الآن إلى هناك سوى أن تعوضي ما ضاع لأمك من حلم(...) أنت تخطئين. لن تكوني أنت ومن معك وحدكم على تلك الأرض (...) ومهما تفعلي فتأكدي من أنك لن تتخلصي من حملك ثقلسن متلازمين: الشعور بالضحية المزمن وتبكيت الجلاد المؤرق(...) ابق أنت ومن معك من التوشاقيم!» (الرواية، ص259). فحاييم هنا يعيب على الصهيونية عدوانها وتعصبها القومي الذي أدى بها إلى الجزم بأحقيتها لوحدها فلسطين متناسية تاريخ اليهود والعرب هناك، كما يشير حاييم إلى الموقف

المتناقض الذي تصدر عنه الصهيونية والذي يجعل من أنصارها ضحايا وجلادين في الآن نفسه، فالصهيونية التي تدعي أنها قامت من أجل فض العدوان العنصري تجاه اليهود واجهت غيرها بعنصرية صارخة «فالظلم الذي لحق بالعرب في فلسطين لا مثيل له في التاريخ!!ظلم قد أدى إلى تشريد شعب عربي بكامله خارج وطنه بالقوة.. ولن يرجع إلا بالقوة»[1]

كما تطرق السايح إلى قضية هجرة أغلب يهود الجزائر حتى قبل الاستقلال إلى فلسطين منصاعين للمساعي الصهيونية وقد كان فئة كبيرة منهم من الأقدام السوداء القادمين مع الاحتلال الفرنسي فآثروا الهجرة إلى فلسطين من أجل الضفر بحياة كريمة عكس التي كانوا عليها في المتروبول فقد كان أغلبهم من الشذاذ والفقراء والمشردين، ويرد ذلك في الرواية في قول أرسلان: « حاييم أنت تعرف أن أغلب الذين يختارون تلك الطريق هم من الذين وفدوا إلى هذه الأرض مع الوافدين من المحتلين الفرنسيين(...) ومن الذين طاردتهم العنصرية واضطرهم الجوع والعوز إلى الهجرة نحو هذا البلد وفضلوا أن يكونوا إلى جانب المحتلين.» (الرواية، ص162).

هذا فضلا عن إشارة السايح إلى النشاط الصهيوني داخل جماعات اليهود من أجل إقناعهم بالهجرة إلى فلسطين مثلما حدث مع حاييم حين قال «إلى أين تريدونني أن

1أحمد محمد عاشور اكس: صفحات تاريخية خالدة من الكفاح الجزائري المسلح ضد جبروت الاستعمار الفرنسي الاستيطاني(1500 . 1962)، المؤسسة العامة للثقافة، 2009، (ط1)، ص218.

أغادر؟ هذا وطني. هنا ولدت وولد آبائي. فلسطين ليست أرضي ولا وطني» (الرواية،ص162). فكان الرد حاسما من حاييم بالرفض لأنه معادي الصهيونية فشخصية كولدا هذه ظهرت في الرواية بوجهة نظر عنصرية صارخة على أساس العرق وخاصة تجاه الجزائريين الذين تدعوهم بالأنديجان، تحقيرا لهم ودلالة على بدائيتهم، ووحشيتهم ويتجلى ذلك فيما تنقله عنها زليخة، مخاطبة أرسلان، في قولها «آه تلك ! كانت تقول إنها لن تدرس مرة أخرى في مدرسة يوجد بها أنديجان» (الرواية، ص244). فكولدا تسعى من وراء ذلك إلى أن تنأى بنفسها بعيدا عن الإختلاط بالأنديجان، محافظة منها على نقاوة هويتها، من أن تمتزج بهوية دونية ووحشية.

إن هذا الأمر رفضه حاييم ورفض معه نزعتها الصهيونية وكذا عنصريتها تجاه الجزائريين الذين تدعوهم بالأنديجان حيث نجدها تعبر صراحة عن رفضها لأن تبقى في الجزائر مع حاييم خوفا من أن تعود إلى ما كانت عليه ذمية وهي التي تخلصت من ذلك، وتحررت حسب زعمها. بظفرها بالجنسية الفرنسية، وعلى أساس ذلك في الرحيل إلى فلسطين، أو إلى الميتروبول "باريس"، ويرد ذلك في الرواية في معرض جدال كولدا مع حاييم حول البقاء أو الرحيل من أرض الجزائر «طمأنها على أنها تستطيع إذا ما بقيت وتزوجا، أن تصير مواطنة كبقية الجزائريين (...) فردت، بعصبية: مواطنة مثل الأنديجان؟ بالمأساة!تعني ذمية من جديد !تعني أن أصبح واحدة من

نسائهم اللائي يعشش في رؤوسهن الجهل والتخلف والحمق؟ لا يا سيد حاييم! كن أنت وحدك المواطن الجديد في هذا البلد الملعون!» (الرواية، ص158).

حاول حاييم معها بشتى الطرق إلا أن نزعتها الصهيونية متغلبة عليها وحاييم يرفض هذا النوع من التعصب ويرفض من الأساس الصهيونية. فقالت في نفس الصفحة «كيف ليهودي مثلك أن يرهن شرفه ودينه وحياته لهؤلاء الحثالات! وفوق ذلك أن يتواطأ مع قتلهم من الفلاكة! » (الرواية،ص258). أهانت حاييم بشدة إلا أنه تمسك بحبه للوطن عوضا عنها.

حاييم الشخصية اليهودية في الرواية لم يتوقف طوال الوقت في التصريح بهويته الجزائرية التي اصطنعها لنفسه على حسب قناعاته ، قولا ويصدق ذلك فعلا، ويشهد له على ذلك أرسلان في قوله مخاطبا الأهالي الجزائريين الذين هاجموا حاييم في عقر بيته. «السيد حاييم بنميمون (...) أصبح جزائريا مثلكم مثلي (...) هل فيكم واحد مثل السيد حاييم، خاطر بحياته و رزقه، من أجل أن يصبح الحلم بالحرية حقيقة كما ترونها اليوم؟» (الرواية، ص226). وفي موضع آخر: «أعرف حاييم جيدا. فلا تشكوا في خياراته حين يتعلق الأمر بوطنيته» (الرواية، ص136)، حيث قام حاييم بفتح صيدليته بعد ما أنهى دراسته مباشرة وزاول العمل فيها. وبعد تفجير الثورة ساند صديق حياته أرسلان فخاطر بحياته بإرسال الأدوية للمجاهدين في الجبال، هذا رغم الشبهات التي كانت تحوم حوله والتي كادت أن تؤدي بحياته حيث أحرقت الصيدلية من طرف

المنظمة العسكرية الخاصة حيث «يقال أنه كان يرسل الدواء للجبل ولذلك أحرقت OAS صيدليته» (الرواية، ص226). حرق صيدلية حاييم أيام الثورة التحريرية، وكتابة العبارة العنصرية على واجهة محله، والتي اختفت بسبب ألسنة النار، ولم يبق منها غير لفظة juif وهو ما يقل أن حرق الصيدلية كان بسبب إعانه الثوار ويرد ذلك في الرواية في قول أرسلان: «وقفنا أمام الصيدلية التي كانت آثار الحريق لا تزال بادية (...) التي كانت تشهد عليه كلمة juif (...) ما آلمني أكثر هو عبارتهم التي كانت حروفها تشع وتخبو بين موجة لهب وأخرى» (الرواية، ص272). ويرد ذكر خبر حرق صيدلية حاييم في موضع آخر حين يتم إعلان أرسلان بذلك. وهو في الجبل وبمن اقترف ذلك أيضا فقد تبين أن المنظمة السرية الفرنسية OAS ذات التوجه الإرهابي والإجرامي وراء ذلك «اقترب مني خيط الاتصال وأبلغني أن المنظمة المسلحة السرية أحرقت صيدلية حاييم» (الرواية،ص197) المعروفة برمزها الثلاثي OAS .

نجد السائح يؤسس لمجتمع متعدد الهوية والثقافة غابر للقوميات، بسبب التعدد، وتنوع هوية الشخصيات أمثلة (أرسلان وحاييم) التي انتقاها ليؤثث بها معمار روايته، ولذلك نجد في الرواية حضورا لإثنيات، وأعراق متعددة.

فالجزائريين كونهم أغلبية مسلمة تريد الحفاظ على نقاوة ديانتها أولا، وإلى ما يعرفونه من تاريخ اليهود الأسود مع الأنبياء الذين بعثوا فيهم، وإلى ما اقترفوه في حق المسلمين ونيهم ثانيا. ويظهر هذا في حادثة مهاجمة الأهالي الجزائريين لمنزل حاييم ورغبتهم

في تصفيته، أو طرده وغيره من اليهود من البلاد، ويرد ذلك في الرواية في المقطع التالي: «لا تتركوا من تبقى من أولاد النصارى بلا عقاب! ابحثوا عنهم! انتقموا منهم لقتلانا(...) وأنا سأتكفل بمن تبقى من يهود الدرب!» (الرواية، ص 220، 221). و «الزعيم يطلب ممن معه أن يبدؤوا بدار الصيدلي في الدرب» (الرواية، ص121). لم يسلم حاييم منهم فأسقطوا عليه الظلم وأنكروه بينهم في هذا المقطع «أطل على إثرها حاييم بهيئته المعذب المغشي عليه من الموت (...) ولا استطاع أن يسيطر على رعشة يده، لما صافحته (...) انبعث من بين المتجمهرين أصوات: هذا اليهودي كان مثله مثل الأقدام السوداء يحمل الجنسية الفرنسية، لماذا لا يرحل مثلهم» (الرواية، ص225).

هنا الأمر لا يرجع إلى تاريخ اليهود ولكن الجهل بالآخر، وهو ما يعزز احتقاره ونبذه لذلك لابد من معرفة الآخر، ولكن يتحقق ذلك إلا بالانفتاح عليه، في هذه المقاطع التي ذكرتها، حاول الأهالي بعد الاستقلال مهاجمة حاييم لاختلافه عرقيا ودينيا عنهم من باب تطهير عرقهم والاستحواذ الكلي على الأراضي وعدم ترك مجال لمن يحاصرهم أو يزاحمهم فيها يسبب جهلهم بسلمية حاييم وبإقراره بأنه محب للجزائر وأنه جزائري، بل وبمساهمته في الثورة عن طريق تسخير ما تشتمل عليه صيدليته لجبهة التحرير، وبما دفعه ثمنا لذلك من إحراقها من قبل المنظمة السرية الفرنسية،

ولذا نجد أن الأهالي قد أعرضوا عنه لما أخبرهم أرسلان بحقيقته وتقبلوه بينهم حين قال «أصبح جزائريا مثلكم، مثلي» (الرواية، ص226).

فرط حاييم في المرأة التي كانت ستصير زوجته وتحمل إهانتها له بعد رفضه للرحيل معها، فكانت وصيته الأخيرة وهو يحتضر أن يدفن في المقبرة اليهودية في سعيدة من أكثر العبارات التي حملت معنى الفراق في وصيته لأرسلان كانت هذه «سأرحل قريبا عن هذه الدنيا وفي قلبي حب عظيم لك ولأهلنا وبلدنا(...) عجيب هذا القدر إن لم يقتلنا بالحرب قتلنا بغيرها (...) أنا أثق في وفائنا، أنت وزليخة أن تسهر على أن ينقل جثماني إلى مدينتنا » (الرواية، ص325).

ظل حاييم متمسك بهويته الجزائرية في حياته وفي مماته وأرسلان ظل وفيا لزيارة قبره ومدافعا عنه وعن هويته الجزائرية ومساعدته وقت الاحتلال ويظهر هذا في قول أرسلان : « من يرقد في ذلك القبر هو الصيدلي حاييم بنميمون نفسه. وهو الذي كان يرسل أدوية لعلاج المصابين من الجنود أمثال والدك » (الرواية، ص333).

3-المسخ الاستعماري:

تناولت رواية أنا وحاييم علاقة إنسانية جمعت بين أرسلان المسلم وحاييم اليهودي في مرحلة دقيقة من تاريخ الجزائر ألا وهي الاحتلال الفرنسي للجزائر لايعني احتلال الأرض والاستيلاء على البلاد فقط بل محاولة الهيمنة التامة على المجتمع من خلال وضع سياسات استعمارية تدميرية لمقومات الهوية الجزائرية فاهتموا باللغة العربية «لأن المستعمر الفرنسي كان يعلم أن اللغة العربية تمثل جوهر الهوية الجزائرية، فقد توخت فرنسا من خلال سياستها اللغوية المحكمة سلب العربية بعض وظائفها التاريخية وتقويتها للغة الفرنسية كلغة دخيلة أريد بها أن تكون لغة إدارة الاحتلال»[1]

حيث جاءت «فرنسة المظاهر الاجتماعية: عملت فرنسا على هدم العالم الاجتماعي واللغوي الجزائري، وبناء محيط اجتماعي وثقافي ولغوي فرنسي يبتلع كل آثار اللغة العربية من المحيط الاجتماعي، ويظهر هذا في تغيير أسماء الشوارع والأبواب والمؤسسات ...إلخ (...) وتغيير حتى أسماء الأشخاص عمدا مع النقل المشوه والممسوخ لهذه الأسماء. من العربية إلى الفرنسية»[2]

[1]- منى ظواهرية: اللغة والهوية الوطنية على محك الإرث الاستعماري، جرائم تاريخية وتأزم هوياتي، مجلة البدر، 2018/01/10، المدرسة الوطنية العليا للعلوم السياسية، جامعة بشار، الجزائر، ص78.

[2] المرجع نفسه، ص81.

فالرواية التي بين أيدينا تحمل في طياتها هذه السياسة من خلال الأسماء الفرنسية الطاغية كأسماء الشوارع والشخصيات وأسماء الأحياء والفنادق والمجلات وغيرها حيث تكررت في صفحات مختلفة من الرواية فاستخرجنا ما أمكننا من المسميات الفرنسية للتدليل بها فتمثلت:

الجدول رقم01 حضور الشخصيات الفرنسية في مجتمع الرواية

أسماء لشخصيات فرنسية	الصفحة
ألفونسو باتيست	13
مسيو ويل لومباردو	22
ماري تريتان	25
أنطوان لونورموند	25
خايمي سانشيز	14
ماكس باتيست	16
آلان بورسييه	181
دكتور مابوز	184
كومندو جورج	186

كولدا رفاييل	188
سيلين شوقالييه	188
سيباستيان رفاييل	203
فاردنون إيقوتن	208
القنصل الفرنسي دوقال	255
مارسيلو	263
موريس بيرييه	264
طبيب ستيفانيني	264
نادل بيزة	263
جنرال بيجو	266
جيني الكباردين	330
دوليس سرفاتي	327
رودريكو	263

الجدول رقم 02 المسخ العمراني

أسماء المدن والشوارع والأحياء	الصفحة

أودو ماكو و أولوفر	304
مدينة جيريفيل	36
شارع جيريفيل	15
شارع إيزلي	16
شارع فيكتور هوكو	36
جورج كليمنصو	137
شارع شاراص	68
شارع ميصوني	69
شارع ميشلي	199
شارع ألزاس لوران	141
شارع شارييه	214
شارع كالييني	218
شارع كمبيطة	76
حي بلكور	121
حي لامارين	167
حي الكاستور	231
شارع لا ري دارزو و ألزاس لورين	318

أسماء المحطات والساحات والأمكنة	الصفحة
ساحة ريموند بوانكاري	36
محطة بيريكو	61
محطة الوقود بايا	214
منطقة تامنسة	144
قرية نازرك	168
ثكنة لارودوت	168
كنيسة جاندارك	168
كافيتيريا	79
وادي الوكريف	107
نصب آنومور	219
محطة إيقتو	270
سور لارودوت	271
مطعم كونزليز	319
فيلاج نيكر	232

مطعم الكاردينال	312

أسماء الحانات والفنادق والسنيمات	الصفحة
حانة سيكورا	14
سينما فوكس	36
سينما لوكوليزي	50
فندق إيزلي	158
سينما لوريجون	319
فندق أليتي	313
حانات الويسترن	233

الجدول رقم03 المسخ الثقافي

المدارس والجامعات والمكتبات	الصفحة
مدرسة جول فيري	14
مكتبة لورن فوك	137
جامعة موفور	94

مكتبة بسيوني	141
مكتبة كارصون	161

أسماء المجلات	الصفحة
مجلة كونسيون ألجيريان	94
مجلة هيستوريا	101

مسميات أخرى باللغة الفرنسية	الصفحة
قلم من نوع باركر	12
حبر من ماركة وترمان	12
تمثال الدوق دورليان	98
مسدس بيريطا	224
رشاش من نوع مات	217
سيارة من نوع ستروان	217

جزمة البياتوكاس	178
رقص من نوع البال	252
فانوس من نوع الكانكي	298
مذياع فيليبس من نوع فيليتا	205
أحذية البوسكالي	277
صاحب البيريه الباسكي والبلو مارسيتيه	224

الجداول السابقة تشير إلى وجود أسماء فرنسية كثيرة في صفحات الرواية، وهذا راجع إلى الاستعمار وسياساته وآثاره التي أحدثها في المجتمع الجزائري، مما يؤكد خطورة هذا الاستعمار الذي لم يستول على مقدرات الشعب الجزائري وعلى ارضه فحسب، إنما كان يسعى جاهدا إلى محو معالم الشخصية الجزائرية وطمس هوية الشعبي، إنها «خطة متكاملة لهدم اللغة الوطنية، وبناء لغة أجنبية مكانها من منطلق متعالي وسلطة القهر، ولم تكن تكتفي بالهيمنة السياسية والعسكرية، وفرض لغتها بجانب اللغة الوطنية»[1]

من هذا القول تظهر الخبايا الدنيئة للمستعمر الفرنسي في فرض لغته الفرنسية على الشعب الجزائري ومحاولة القضاء على مقوم من مقومات الهوية الجزائرية لتكون "عاملا سلبيا يعمل على مزاحمة لغة البلد، وإضعاف مركزها الاجتماعي، ودورها الثقافي والحضاري، وخلق ازدواجية لغوية وصراعات ثقافية وطبقية"[2] هذا ما تجسد في رواية أنا وحاييم من محاولات الاستعمار للقضاء على اللغة الأصلية لشعب واستبدالها بلغة المستعمر أنه يعرف اللغة العربية هي مرتكز الهوية ورمز العروبة ، فالغرض هو التوغل في المجتمع. والسيطرة عليه بجعل جميع المظاهر الاجتماعية والإدارية باللغة

[1]– مصطفى المسعودي: من نحن في زمن التحولات الكبرى؟ سؤال الهوية الحضارية: السياق المغربي نموذجا، ص37.

[2] أحمد منور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية دراسة أدبية، دار الساحل، الجزائر، ص134.

الفرنسية حيث أدت هذه السياسة إلى تغيير وجه الجزائر العربي، من خلال تغييرها لأسماء المدن، القرى، الأحياء، الشوارع، والساحات العربية بأسماء فرنسية قصد فرنسة المجتمع الجزائري.

إن رواية أنا وحاييم تصور فترة من فترات الاستعمار الفرنسي للجزائر، وتحاول مقاربة تبعاته على المجتمع الجزائري ونحن في هذا الصدد نتتبع آثار الغالب (الفرنسي) في المغلوب (الجزائري) خصوصا على مستوى التزاحم اللغوي.

إن مزاحمة اللغة الفرنسية للغة العربية من أخطر ما واجهه المجتمع الجزائري وهو يقاوم ذلك المسخ الذي أراد من ورائه الاستعمار الفرنسي القضاء على الشخصية الجزائرية وتغيير معالم الهوية الوطنية باسم المدنية والتحضّر، ولعل الفكر الاستعماري ما زال إلى اليوم يحاول الهيمنة على اللغة العربية ولكن بأسماء جديدة تنسجم مع توجهات القوى العظمى في العالم، وهنا نستعين بتصريح عبد السلام المسدي الذي تحدث فيه عن تبعات العولمة على اللغة العربية وعن أسباب عدم تبنيها من غير العرب، فيقول: «أمران جاءا يكثفان الوعي بمأزق اللغة العربية... :ظاهرة الكونية الثقافية المستترة بعباءة العولمة وامتداداتها، وظاهرة التهمة الجاهزة التي امعنت في الإلهاء إلى حد الإضلال فأشاعت أن الإسلام هو الإرهاب، وأن الإرهاب هو الإسلام ثم روجت أن الإسلام هو العرب وأن العرب هم الإسلام، فبدا الاستنباط حتميا بالضرورة: أن اللغة التي جاء بها الإسلام وبها نزل نصه المقدس تحمل في كيانها

بذور العنف... فهي بذاتها عدوانية تسوق الكره، وتحرض على الإقصاء. ها هي اللغة العربية ينحسر فضاءها يوما فيوما وإذا الذي تتركه من فراغ، يهبط هدية سخية بين الأحضان إما تتلقفه اللغة الأجنبية أو تتلقفه اللهجة العامية، وقد تتعاونان على تقاسمه...» [1].

ومن خلال هذا التصريح نلاحظ توجس المسدي الخيفة والنفور من تداعيات العولمة التي تسعى إلى المساس باللغة العربية، ومنه نستنتج أن كل مظاهر المثاقفة مرحب بها وحسب رأيه تتمثل أسباب تردي حال اللغة العربية في العولمة من ناحية والتشويه الذي طال صورة الإسلام من ناحية أخرى.

كما يستدعي المسدي دليلا من وجهة نظره من عدم الترحيب بتداعيات العولمة على اللغة، ما قامت به الدولة الفرنسية من مساع، وما سنته من قوانين لمواطنيها حفاظا على اللغة الفرنسية تصل حد التعصب، وهي الدولة الحاملة لشعارات الحضارة والتمدن والحرية، نجدها تفرض على مواطنيها اللغة الفرنسية فرضا، وتمنع اللغة الإنجليزية، «عندئذ نفهم أن دراسة السياسات تتضمن أيضا السياسة اللغوية»[2] ومن بين الدلائل الأخرى على علاقة اللغة بالسياسة أيضا في نظر المسدي أن: «الدستور في أغلب الحالات ينص على القومية، التي يتعلق بها الشعب لتكون جزءا جوهريا في

[1]– عبد السلام المسدي: الهوية العربية والأمن اللغوي، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، بيروت، لبنان، (ط1)، 2014، ص12، 13.

[2] المرجع نفسه، ص260.

تحديد هويته، وقد يعتمد الدستور مبدأ التعدد اللغوي، ولكنه يتحدد مكوناته بالتنصيص الصريح... والبلاد التي لم ينص دستورها على ذلك فلأن الجميع يعتبر سيادة اللغة القومية أمرا بديهيا، ليس في حاجة إلى التنصيص عليه، كما كانت الحال عند الفرنسيين، حتى استدركوا أمرهم، فسارعوا عام 1992 إلى تنقيح دستور بلادهم»[1] .

و بالعودة إلى رواية أنا وحاييم، نجد أن لغة الرواية تنسحب عليها التداعيات التي تكشف عنها رؤية المسدي، فلغة الرواية تتجلى للقارئ في صورة هجينة تمتزج فيها الفصحى والعامية والأجنبية.

وبالنسبة للهجنة اللغوية المتأتية من مزج اللغة العربية الفصحى باللغة العامية واللغات الأجنبية، نجد أن السايح يجريها على لسان الشخصيات المثقفة، والأكثر تعرضا للهجنة اللهوياتية، والتنوع الثقافي، على غرار أرسلان ونذكر في هذا الصدد قوله: «غالبا ما(Cafeteria) المعبر عن (كافتيريا)مثال استخدامه لفظة حضر إلى جانبي عندما أخوض جدالا في ساحة الجامعة أو الكافتيريا» الرواية، ص78. هذا لأن أرسلان يعتبر مزدوج اللغة. فهو يتقن اللغة الفرنسية إلى حد مماثلة ناطقيها الأصليين، فيتحدثها بطلاقة ودون لكنة قد توحي بهويته غير الفرنسية، «أنا أرى ما

[1] عبد السلام المسدي: الهوية العربية والأمن اللغوي ، ص277.

يجلب لك الانتباه أيضا هو لغتك الفرنسية التي أجدها، قبل زملائك متقنة دقيقة» (الرواية، ص78).

ويفصح حاييم عن مظهر من مظاهر الهجنة اللغوية بسبب إتقانه عدة لغات ومن بينها العبرية، فضلا عن اللغة العربية التي يجيدها في صورتها اللهجية، ويبدو ذلك واضحا في العديد من المقاطع، نذكر منها: «مسيو ويل ... اسم أوَله لي حاييم بخبث إلى وَيْل لمعرفته اللهجة العربية، لأن أمه زهيرة كانت لا تتكلم غيرها، عكس والده موشي الذي علَمه العبرية، وبها صار يقرأ التلمود والتوراة، مثلما تعلمت أنا العربية في الكُتاب، منذ أن بلغت الرابعة، وبها حفظت سورا قصيرة من القرآن إلى سن السادسة» (الرواية، ص 31 ،32).

إضافة إلى الفرنسية التي يتقنها تماما مثل أرسلان، يقول الراوي: «ثم طلب منه ألا يجيبه عن أي سؤال يلقيه عليه إلا الفرنسية من غير أخطاء، ففعل حاييم كل مرة من غير هفوة محولا لسانه فرنسيا بلا لكنة» (الرواية، ص34). وبخصوص علاقة التعدد اللغوي لشخص ما بتعدد الهوية، فذلك راجع إلى القدرة على التعدد اللغوي للامتزاج بالآخر الذي يتقن لغته، ولمحاورته، بالتالي التأثير فيه والتأثر به، وأيضا القدرة على الاطلاع على ثقافته وأدبه وعلومه... بالإضافة إلى أخذ صورة حقيقية عنه يهدم بها الصورة المتخيلة عنه التي ورثها عن مجتمعه.

ومن زاوية أخرى، فإن الربط بين علاقة الهوية واللغة، وكيفية تبين الهوية الغيرية، من خلال اللغة من قبل الناطق بها الأصلي، فضلا عن اللكنة التي دائما ما تفصح عن هوية من يستعملها ، كما حدث مع الصادق الذي تبين لأرسلان بمجرد نطقه أنه من أصل أمازيغي وبالتحديد قبائلي، بالرغم من تحدثه بالفصحى، وذلك في قول أرسلان: «وقال الصادق بلكنة أهل القبايل، إنه من تيزي وزو...» (الراوية، ص83).

حاولت فرنسا إخضاع المجتمع الجزائري والسيطرة عليه «فجعلت من النظام التعليمي أهم أدوات تحقيق مشروعها وسياستها الاستعمارية، حيث أنه بعدما قامت باستعمار الإنسان ونقله من نموذج ثقافي معين إلى نموذج ثقافي يختلف عنه تماما»[1].

نلاحظ هنا أن الخطط الفرنسية هذه عملت على السيطرة والاستحواذ على الإنسان الجزائري وإخراجه من ثقافته العربية التي تعبر عن الهوية الجزائرية.

هذا فقط من أجل «فرنسة المجتمع الجزائري وقطعه من جذوره من خلال قصر التعليم على اللغة الفرنسية دون سواها»[2].

هذا الفعل من فرنسا وضع الجزائريين في خطر المساس بالهوية الوطنية والمساس باللغة والشعب وأصل الشعب.

---

[1]– سمير أبيش: أهداف وخصائص السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، ع23، سبتمبر 2017، جامعة الشهيد حمة لخضر، الوادي، ص:132.

[2]– المرجع نفسه، ص:132.

كثرة استعمال المصطلحات الفرنسية في الرواية راجع إلى فكرة ذكية من السايح ليدين من خلالها أثر الاستعمار وإلى أي مدى وصل بالجزائر إبان الاحتلال حيث «احتلت اللغة الفرنسية المرتبة الأولى، من حيث ظلت اللغة العربية (لغة الجزائريين) تحتل المرتبة الأخيرة في جميع المستويات وتدرس من طرف معلم فرنسي»[1].

هذه النقطة التي جاءت في هذا القول تظهر في الرواية «استدعى المعلم مسيو سانشيز» (الرواية، ص17).

فالمحتل الفرنسي قصد أن تكون الفرنسية هي الأولى في الجزائر ليمحي أثر اللغة الأم للجزائريين ألا وهي اللغة العربية وجعل المعلمين فرنسيين ورفض العرب الجزائريين بمدارسهم تخوفا من أن تكون اللغة مصدر تخاطب وقوة الشعب الجزائري.

هدف الاستعمار إلى «خطر استعمال العربية في المجال الرسمي خطرا مطلقا، فلا وثيقة تقبل إداريا إلا إذا كانت مكتوبة باللغة الفرنسية، حتى أسماء المحلات، والأماكن العامة، والتواقيع على الوثائق... الكل باللغة الفرنسية، فصار الفرد المتعلم بالعربية في درجة موازية للأمي، لتميز الفرنسية لغة الخبز والحياة بدون منافس»[2].

جردت فرنسا اللغة العربية من مساهمتها في شؤون الدولة الجزائرية واستبدلتها باللغة الفرنسية التي أصبح استعمالها هو المسيطر والشائع في أمور المجتمع الجزائري «فحارب اللغة العربية تثبت الوسائل حتى أصبحت لغة أجنبية باسم القوانين الرسمية، مثل قانون 1834م الذي ينص على أن الجزائر أصبحت فرنسية وقرار

[1]– فريد بشيش/سعيدي: البرامج الاستعمارية الفرنسية ودورها في سلب هوية الطفل الجزائري، مجلة كلية التربية، ع177، ج1، يناير لسنة 2018م، جامعة الأزهر، ص:209.

[2]– نصيرة زيتوني، واقع اللغة العربية في الجزائر، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، م27، ع10، 2013، جامعة حائل، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية، السعودية، ص:2109.

مجلس الدولة في 1935م وقرار شوطان 1838م على أن اللغة الفرنسية أصبحت اللغة الرسمية للجزائر»[1].

وصل استعمار الجزائر إلى حد إقرار القوانين بشأن اللغة العربية ووضع القوانين باعتبارها دخيلة على المجتمع الجزائري حيث هي اللغة الأصلية التي تعبر عن هوية الوطن كما وجدنا في الرواية الأحاديث التي دارت بين أرسلان وحاييم بالعربية والحرص منهما على ألاّ يسمع مسيو ويل حديثهما باللغة العربية.

«فهذا النظام لا يعتبر الفرد الجزائري مواطنا جزائريا وإنما يعتبره أهليا أو فردا لا قيمة له فحياته مرتبطة بسيده المالك لرأس المال وكأنه خلق لخدمة المستعمر» [2].

هنا اعتبر الجزائريين مواطنين لا حقوق لهم بل عبيد عند المحتل الفرنسي هو سيده ويجب عليه تطبيق أوامره حتى إذا لم يكن يريد فعلها لأنه تحت قوة الاستعمار المستبد.

[1] نصيرة زيتوني، واقع اللغة العربية في الجزائر، ص65

[2] المرجع نفسه: ص:66.ا

الفصل الثاني: "أنا وحاييم" وكسر العادة القرائية

1 . تفكيك الوعي العدائي.

2. تهشيم المركز ومركزة المهمّش.

3. البعد الأيديولوجي لرواية " أنا وحاييم

1. تفكيك الوعي العدائي:

"أنا وحاييم" تحكي تفاصيل قصة إنسانية وتصف علاقة الصداقة المتينة التي جمعت بين مسلم ويهودي منذ الطفولة، حيث سنوات الدراسة واللعب في وطن سلبت حريته من طرف عدو مستعمر، فقد كانت هذه الصداقة أقوى من كل الظروف التي يمكن أن تسود مجتمعا يعيش حالة من الظلم والعنصرية.

ولعل الحبيب السايح أراد من خلال هذه الرواية أن يضرب لنا أسمى معاني الصداقة والتعايش السلمي الذي جمع الأنا بالآخر، رغم كل ما يعترضهما من مشاكل وصعوبات، وقد نقل بذلك صورة شعب بكامله من خلال صورة اليهودي، فحاييم يمثل الآخر المتعاون مع الأنا والصديق في السراء والضراء.

علاقة أرسلان بحاييم كانت عميقة ليست سطحية أو مؤقتة، لدرجة أنهما كانا يبوحان لبعضهما بكل صغيرة وكبيرة «وذلك ما تجاذبته مع حاييم همسا بمرقد تلاميذ الطور الإكمالي جنب بعضنا بعد انطفاء الأنوار في العاشرة ليلا» (الرواية، ص 21). كما أنهما سردا لبعضهما تفاصيل ليلة نجاحهما في البكالوريا «كذلك عبرت لحاييم خلال تناولنا عشاءنا في مطعم اليهودي بكار، فأعاد عليَ ما أحسه » (الرواية، ص 50). وكانا بعد انقضاء كل عطلة يسردان كل تفاصيل هذه العطلة عبر الرسائل «وأخبرني أنه كتب لي رسالة، ضاعت منه لا يدري أين. وصف لي فيها أوقات فراغه

وسأمه خلال القيلولات التي تتمطط لساعات قبل حلول وقت قهوة العشية مع هبوب نسمات الشمال المحملة بشذى الشيح. ثم أخرج من محفضته ظرفا أراني إياه عليه اسمي بالعنوان في الدرب» (الرواية، ص 40).

والرواية ترسم لنا نموذجا للعنصرية التي تعرض لها الجزائريون من طرف الاستعمار الفرنسي، فوالد حاييم مثلا فقد كانوا يطلقون عليه كلمة "أنديجان"؛ الكلمة التي تحمل في طياتها كل معاني الاستعلاء رغم أنه كان يحمل الجنسية الفرنسية بموجب قرار التجنيس كريميو الذي منح الجنسية الفرنسية لليهود والأقدام السوداء في الجزائر.

يصور الراوي الملامح الإنسانية التي كانت بين عائلتين، إحداهما يهودية "عائلة موشي بنميمون الملقّب بو حاييم" والأخرى مسلمة "عائلة القايد المنور حنيفي" حيث كانت هاتين العائلتين تتبادلان الأطباق في مختلف المناسبات الدينية بغض النظر عن دين وعرق كل منهما «إني لا أنسى أيضا مناسبة المولد النبوي، والديك المعروف بريش نوار الفول الذي ذبحه لنا موشي بوحاييم. ونصف الديك نفسه بمرقة مع الرقاق الذي أوصلته في صحن من الفخار لخالتي زهيرة» (الرواية، ص 108).

كما تشترك العائلتان في بعض العادات، يقول الراوي: « وعوائد الأعراس عند عائلات اليهود والمسلمين وتشابههما كما في مراسم موكب العروس يوم زفها إلى بيت العريس» (الرواية، ص 40).

كما أن اعتبار حاييم فردا من أفراد عائلة صديقه أرسلان حبب العرب في قلب حاييم وهذا ما ساعد في تقوية علاقة الحب والصداقة بين هذين الصغيرين وكبر هذا الحب مع الزمن ليبقى قلب حاييم معلقا بالجزائر والجزائريين، والوقوف معهم في قضيتهم بكل ما يملك من جهد ومال، وكون حاييم يساهم في رفض الظلم عن الجزائر هو الأمر الذي عزز ترسيخ فعل الهوية، وتقليص مسافة الاختلاق الديني «كذلك اعترف لي في طريق عودتنا . وقال إنه شخصيا ليس من أولئك اليهود (...) وليس هذا فقط. فجذورنا من هذه الأرض» (الرواية، ص 100).

أراد الحبيب السايح من خلال هذه الرواية أن يكسر تلك الصورة النمطية المعروفة لصورة اليهودي الذي اعتاد الأنا العربي أن يراه عدوا، كما هو الغالب في جل الأعمال الأدبية التي تتحدث عن الصراع بين (الأنا) العربي و(الآخر) اليهودي، يحاول الراوي من خلالها كسر هذه الصورة النمطية لليهودي في رؤية جديدة أساسها الاحترام، الصداقة، الحب، التعاون....إلخ.

وهذا ماجسده فعلا في علاقة الجزائري أرسلان حنيفي باليهودي حاييم بنميمون اللذين يبدآن مشوار الصداقة منذ الصغر، ولم يفرق بينهما إلا موت حاييم، فكانت فاتحة السرد بأول يوم يلتحق به أرسلان وحاييم بالمدرسة الابتدائية «وعند الباب

الصامت. ذاك الذي رأيت حاييم يخرج منه بمحفظته قبل ثمانية وعشرين عاما كي نتوجه معا لأول مرة إلى مدرسة جول فيري» (الرواية، ص 11).

ولكن مع التدقيق في الرواية يتضح للقارئ أن هذه الصداقة كانت حتى قبل الدراسة، وتعتبر كلمة صديقي التي لطالما تكررت في معظم الحوارات التي دارت بين أرسلان وحاييم إشارة واضحة ودلالة على وجود هذه الصداقة «أرسلان صديقي» (الرواية، ص 205)، وكرر الراوي هذه الجملة في العديد من مواضع السرد.

لقد صورت هذه الصداقة جانبا من سيرة مؤلفها، وهذا يعني أن حاييم هو صديق أرسلان واقعا وليس ضمن العمل الروائي فقط. فكلمة «أرسلان صديقي» الرواية، ص205 مثلا. والكثير العبارات الأخرى تعبر عن قوة المحبة والصداقة بين حاييم وأرسلان وفيما سبق تطرقنا إلى تهميش المواطن الجزائري تحت سلطة الاستعمار الفرنسي.

كما ذكر الاستهزاءات التي وُجهت إلى هذا الشعب من طرف الاستعمار والأقدام السوداء، «هنا لا يُقبلُ الأنديجان (...) وأرقني كيف يكره الإنسانُ الإنسانَ، كيف ينزله إلى حضيض الاحتقار، فلا يسويه، في طعامه وشرابه، حتى مع الحيوانات» (الرواية، ص74).

فكانوا ينعتون الجزائريين بكلمة "أنديجان" والتي تحمل في طياتها الاحتقار، والمذلة. ورغم هذا التهميش الذي كان بإمكان لحاييم أن يتفاداه بموجب قرار كريميو الذي منح اليهود الجزائريين الحق في الجنسية الفرنسية، فإنه أبى إلا أن يكون جزائريا، واعتبر أرسلان صديقه وآمن بقضية شعبه لما رآه من صديقه وعائلته، والتي كانت تعتبر حاييم فردا من أفرادها وتثق بصداقة ابنها أرسلان له.

لقد جمع الراوي بين الأنا والآخر في الرواية التي هيمنت فيها علاقة الحب والصداقة، والتكرار المفرط للكلمات الدالة على الصداقة تدل على قوة هذه الصداقة واشتراك أرسلان وحاييم في الشعور، والفكر، والفعل اليهودي في الرواية مهتما بالثقافة الجزائرية وحاول الانفتاح على الجزائريين والاندماج فيهم.

ويصور لنا الراوي ملامح إنسانية بين أرسلان وحاييم، عن طريق العلاقات بين جدة أرسلان "لالة ربيعة بينت الفضيل" وأم حاييم "زهيرة سماح" والتي كانت تتكلم اللغة العربية «أوله لي حاييم بخبث إلى وَيل لمعرفته اللهجة العربية لأن أمه زهيرة كانت لا تكاد تتكلم غيرها عكس والد موشي الذي علمه العبرية وبها صار يقرأ التلمود والتوراة» (الرواية، ص 31). بالإضافة إلى عدم شعورها بأنها فرنسية وهذا ما عرفناه من خلال الحديث الذي دار بين أرسلان وحاييم «حدثني بأن والدته ظلت مثله لا تشعر بأنها فرنسية» (الرواية، ص 76). وما يوضح ذلك زيها وملابسها التي لا تفرق عن لباس

الجزائريات «وهي في ثوبها العادي بالشدة على الرأس والشال على الكتفين والعباية الطويلة بالحزام والبلغة المزركشة في القدمين (...) لأن أمي لا تنقصها غير الملحفة مثل جدتك وأمك» (الرواية، ص 76، 77). كل هذا ساهم في بناء شخصية حاييم، تلك الشخصية الشريفة المحبة للشعب الجزائري، وهذا ما جعله يرفض الانتساب إلى الفرنسيين، بل وحتى الصهاينة اليهود، ولما عرضت عليه صديقته كولدا رفاييل أن يرحل مع الراحلين إلى دولة اليهود في فلسطين، رفض رفضا قاطعا وأصر البقاء في الجزائر التي يعتبرها بلده «قلت له إلى أين تريدونني أن أغادر؟ هذا وطني، هنا ولدت وولد آبائي. وأخلاط جسدي من تربة هذه الأرض. وفيها أدفن مثل آبائي. فلسطين ليست أرضي ولا وطني» (الرواية، ص 162).

وبالرغم من كل ما كان يتعرض له كل من أرسلان وحاييم من محاولة تفرقة أو محاولة استعلاء أحدهما عن الآخر إلا أن كل واحد منهما كان متمسكا بالآخر، محافظا على الصداقة القوية التي تجاوزت كل الظروف «ولكن قل لي، ما طبيعة هذه العلاقة التي تربطك بمسلم غير فرنسي! أنت حاييم بنميمون مواطن فرنسي أعلى من أرسلان حنيفي درجة فكيف تقبل مصاحبة أنديجان مثله والحديث إليه بتلك اللهجة كأنه أحد أفراد عائلتك »

وانتظر من حاييم نفيا أو وعدا غير أنه رد عليه، ببداهة:

«لا أشعر أني فرنسي. وأرسلان مثل أخي» (الرواية، ص 34 ، 35).

خلص البحث إلى أن حاييم يلغي علاقاته وارتباطاته بكل ما ينفي العلاقة مع الجزائريين؛ وهنا رأينا حبه وتعلقه بالجزائر، وارتباطه الوثيق بهذا البلد ورفض مغادرته أو الانتماء إلى غيره، والدفاع عنه بكل الوسائل والإيمان بقضية شعبه العادلة.

إن الثقة المتبادلة بين أرسلان وحاييم بلا حدود، وما كان يقوي هذه الثقة هو التشابه في الأفكار إلى درجة الحدس بكل ما يجول في خاطر كل منهما. ولما كان أرسلان يشكو تذمره لحاييم، كان يتقبل الشكوى ويحس بها بل ويهون على أرسلان السخرية والعنصرية، وهذا من أجل نيل النجاح والصبر على العوائق.

وما كان يهون على كل منهما هو ما ينتظرهما بعد التخرج للوقوف وقفة رجل واحد لنصرة الوطن « ففاكهني حاييم كعادته، ليخفف عني، ذلك أني كنت أشعر بالقلق، فعلا: وستنتهي مقاتلا من أجل القضية الأخرى. وسأجدني متورطا معك.

رغم أنفك لأنها قضية مشتركة سندخل معركتها قريبا» (الرواية، ص128).

كما اكتشف البحث أن رواية الحبيب السايح هذه تكشف جانبا آخرا مثيرا للجدل المتمثل في مساهمة وشهامة الآخر اليهودي، ولذلك نجد أفعاله إيجابية تجاه الجزائريين وهذا ما ورد عندما تفكه حاييم اليهودي لأرسلان: «تعرف يا أرسلان؟ كل يوم أزداد

شعورا بأن مكاني يجب أن يكون إلى جانبك. أحمل السلاح مثلك من أجل شعب يستحق الحياة » (الرواية، ص 188).

فرد عليه أرسلان : «ولكنك هنا في صيدليتك تقدم ما يسند السلاح، ولولاك ما كانت زليخة لتنجو في تلك الليلة» (الرواية، ص 188).

وهنا يؤكد أرسلان على المساهمة الهامة التي يقوم بها حاييم من خلال صيدليته، ولم يكن يقبل حتى الشكر على مساعداته «هذه الرفوف بكل ما فيها تحت تصرفك» (الرواية، ص 189).

كان حاييم مهتما كثيرا بالثقافة الجزائرية محاولا بهذا الاهتمام الاندماج والتغلغل في المجتمع الجزائري، كما يمكن القول أن شخصيته تتميز بالاتزان الثقيل، والثقافة الجيدة والإحترام الأخلاقي، وهذا ما نجده في مدح أرسلان له في قوله: «كما وجدتني أغار من حاييم كيف يعادل بين الجد والهزل بالشكل الآخر طبيعة، فيما شعرت أنا غالبا بتيبس مزاجي في ما يستدعي الاستنباط» (الرواية، ص 74).

حاييم، ذلك الشاب الذي تشع روحه بالوطنية والشهامة، والسعي وراء افتكاك حريته من فم مغتصبها، وقد لمسنا كل هذا في صفحات الرواية، مما جعل منه محل ثقة لدى أرسلان، «أعرف حاييم جيدا. فلا تشكوا في خياراته حين يتعلق الأمر بوطنيته» (الرواية، ص136).

فكان يرى أن الحرب لابد منها، وأن ثورة الشعب ضد المحتل حاصل لا مفر منه بعدما بلغ الظلم ما بلغه، وأن الشعب له مبرراته لكي يقوم ويجاهد ليرفع عن نفسه هذا الاستبداد، فمن وجهة نظره: «هؤلاء الكولونياليون حمقى لا يستفيدون من التاريخ تاريخ الأمس فقط مع الفيتناميين» (الرواية، ص 131).

كان اليهودي حاييم يؤمن بقضية الأهالي لما عاشوه من ظلم، وأن هذا الظلم لابد أن يزول، ولهذا فالحرب قرار لابد منه، وبمصاحبته لأرسلان الذي يعتبر واحد من الأهالي فإنه يوقن في قرارة نفسه أن الحرب ستنتهي باسترجاع حق الأهالي ورفع يد الظلم عنهم «أما هذه الحرب فستعرف النهاية التي نتوقعها» (الرواية، ص 133).

وكان يوم الاستفتاء بالاستقلال بالنسبة لشخصية حاييم بصمة أمل فيما هو قادم للشعب الجزائري، والراوي هنا يُظهر اليهودي بتلك الصورة التي تشجع المساواة وإرجاع الحق لأصحابه بغض النظر عن معتقداته الدينية التي تقر بأن اليهود هم شعب الله المختار وأنهم يثبتون في الأرض التي عاشوا بها دونا عن جميع البشر، ويجسد فكرة المساواة، واللحمة وعدم التفرقة بين الناس «فتشاهد لأول مرة، انغمار الأقدام السوداء والأوروبيون في بحر الأهالي الذين أذهله منهم أنهم كانوا يخزنون كل ذلك التوثب الذي أظهروه» (الرواية، ص213).

كما لمسنا ذلك الشعور بالغبطة في نفس حاييم عند إظهار نتيجة النعم الساحقة، لقد كان الشعور بالفرحة لدى حاييم لا يختلف عن فرحة أي شاب أو أي مجاهد جزائري بعد كفاح وتضحيات: «وكان حاييم، على لهفة مثل لهفتنا، يدير زر البحث عن المحطات الإذاعية ثم يلتفت إلينا، مشرق الوجه» (الرواية، ص 217).

وها هو الحلم الذي لطالما انتظره الشعب الجزائري يتحقق، وها هو الشعب الجزائري يفرح أخيرا باسترجاع سيادته، وأرسلان وحاييم مثل باقي الشباب يخرجون مع الأهالي إلى الشوارع للاحتفال.

إلا أن الموقف العدائي بين الأنا والآخر لا يزال قائما ومسيطرا منذ الأزل، وهذا ما وجدناه فيما تعرض له الآخر اليهودي من طرف الأنا العربي الذي رفض بقاءه بسبب ما يحمله من اختلاف ديني، فالراوي صور موقف الأنا الجزائري من الآخر اليهودي، حين ترسخ الاعتقاد بأن الآخر بالنسبة للأنا وحشا ومدمرا ومستعمرا ولا إنسانيا، يجب إقصاؤه من الرقعة الاجتماعية التي تجمعهم فيها الدواعي الحيايتة. ولكن صداقة الجزائري أرسلان له جعلته يسانده ويرفع الظلم عنه: «السيد حاييم بنميمون هذا الذي جاء هؤلاء الأشقياء ليعتدوا عليه ويسطوا بيته أصبح جزائريا مثلكم، مثلي مثل هذه المرأة أمامكم» (الرواية، ص 226). ويضيف بعدها «هل فيكم واحد مثل السيد حاييم خاطر بحياته ورزقه من أجل أن يصبح الحلم بالحرية حقيقة كما ترونها الآن» (الرواية،

ص 226)، وهنا يتسامح الأهالي مع اليهودي ويُعترف به كمواطن ولد وترعرع بهذا البلد وله كامل الحقوق التي يتمتع بها الجزائريون.

وفي المقابل صور لنا الراوي مشاعر الآخر اليهودي بعد الذي وجده من الجزائريين الذي رأى فيهم تقبل الآخر، حيث كانت المساجد والبيع التي يتعبد فيها اليهود جنبا إلى جنب دون تفرقة أو اعتراض من طرف الاثنين، فالذي عرفه عن الجزائريين أنهم يبنون علاقاتهم على أساس التسامح، وحاييم أيضا يؤمن أن الله يجب أن يكون في القلب، لا داخل المساجد ولا حتى البيع. «لطالما تساءلت، منذ التقينا، بعد خروجنا من صلاة الأربعاء، في بيعة لارودوت، إن كانت الديانات صارت عاجزة تماما عن التقريب بين أبناء آدم، إذ يبدو أن الصلوات كلها في كنيسة هذه المدينة ومسجدها وبيعتها لم تزد هذه الحرب إلا أوارا» (الرواية، ص 202).

2-تهشيم المركز ومركزة المهمّش/ كتابة التاريخ المضاد:

2-1. شرعنة الخيانة:

لقد علقت تسمية "القايد" في مخيال الجزائريين بمعاني الخيانة والتعاون مع الاستعمار وما إلى ذلك من التنكر للأهل وللوطن، وهذا مقابل ما تتمتع به هذه الفئة من امتيازات منحها إياهم الاستعمار، تشمل الجوانب السياسية والإدارية والقضائية والجزائية، فضلا عن تولي الإشراف على الأسواق الأسبوعية للقبائل.

إن الحبيب السايح في رواية " أنا وحاييم" سرد التاريخ بصورة مغايرة للتاريخ الرسمي للثورة الجزائرية، مما يعني ان المتخيل السردي في هذه الرواية فعّل ما يسمى بـ" التاريخ المضاد" الذي تحوّلت بموجبه جبهة التحرير الوطني إلى فئة مهمّشة في مجتمع الرواية، وتحوّلت فئة القياد بموجب ذلك من موضع الخيانة إلى موضع المدافع عن حقوق الأهالي ومساعدتهم في الظروف الصعبة، وهذا ما جسده دور والد أرسلان القايد المنور حنيفي ودوره في مساعدة بعض المحتاجين، يقول أرسلان: «بينما كان غالبا ما أرسل عثمان إلى هذا الفلاح أو ذاك بمبلغ مالي يساعده على تسديد ديونه تجاه البنك أو تخليص رهن» (الرواية، ص 192).

كما كان القايد المنور حنيفي يساعد العائلات الفقيرة التي لا مدخول لها «وكان، من حين إلى آخر، يرسل ليلا معونات إلى أكثر من عائلة في الريف يعرف أن رجالها التحقوا بجيش التحرير» (الرواية، ص 192).

إن والد أرسلان في الأساس لم يقبل تولي مركز القيادة إلا من أجل أبناء بلده «والدتي التي أخبرتني يوما أن والدي قبَل يوما مسؤولية قايد ليرد الأهالي غطرسة الكولون ويخفف عنهم ظلم إدارة فرنسية طالما رأيت بعيني وجودها مجسدا في الحقول والمباني والمزارع تحررا ورفاها وعلى حال الأهالي قهرا وفقرا» (الرواية، ص 299).

غير أن عدم قدرته على الاستمرار في المجابهة وعدم إيجاد المنفذ الفعال للمشاركة في إنتاج جديد بعد الاستقلال، إذ أن القايد يجب أن يلغي شخصيته أمام سلطة الاحتلال لحد الإهانة والغطرسة ويتجلى هذا في إهانة العقيد للقايد حنيفي « وأعرف كذبكم الذي هو طبيعة فيكم ، هكذا أسر والدي الخيانة في نفسه ، وافتعل للعقيد تأسفا » (الرواية، ص 194).

لم يكن بإمكان الراوي تثبيت نسق التعايش، ولا صناعة التاريخ الموازي الذي يحتضن القايد واليهودي، دون إعادة تقييم للتاريخ الرسمي، وهو حين جعل الرواية تدور حول هذين النموذجين، وربطهما بثورة التحرير، إنما كان يوجه نقدا لرؤية تتعلق

بالتاريخ الرسمي للثورة الجزائرية، فمن خلال هذا التاريخ الذي صنعه المتخيل السردي، يزيح الكاتب مركزية أساسية في تاريخ ثورة التحرير.

وكأن السايح يدعو إلى إعادة الاعتبار إلى فئة "القياد"، ونقلها من الهامش الذي وضعها فيه التاريخ الرسمي إلى المركز وهو ما يتنافى مع الصورة الذهنية المرسومة عن فئة القياد في وعي الجزائريين، وذلك حينما جعل منها نموذجا وطنيا ساهم في مساعدة الأهالي، بل أضفى عليها طابع القدسية لمّا جعل والد أرسلان يتوفى في مكة المكرمة،

والكاتب حين اختار ابن القايد طرفا في علاقة الانفتاح والتسامح مع اليهودي لعله يروم من خلال ذلك الإشارة إلى دور هذه الفئة أيضا في اقتراح المشروع البديل القائم على تذويب القيم الثورية والوطنية التي رسختها ثورة التحرير، وإقامة تصورات جديدة لقيم تنهض على مغايرة السائد وترميم صورة الخونة في الوعي الشعبي الجزائري.

2-2. ترسيخ الفكر اليساري.

مهما تكن النزعة الإيديولوجية التي تعبّر عنها الرواية والأفكار التي تتبناها الشخصيات، فإن الرواية أولا وأخيرا هي عمل فني يعكس الأثر الإيديولوجي الذي يتركه الكاتب في هذا العمل، وتمثل شخصية الراوي المرآة التي يرى من خلالها القارئ الأشياء في الرواية، فالراوي صوت يختفي وراءه الكاتب، وقناع يؤدي دوره في التحكم بصيرورة السرد، ويقوم بتوجيه العملية السردية بما يتواءم مع العناصر الروائية المتعددة[1]، وباعتبار الراوي يمثل قناع يتوارى من خلفه الكاتب ويترك له المجال للتعبير عن رؤاه وأفكاره بحرية، باعتبار ذلك فإن الراوي يصير بمثابة الأنا الموازية للكاتب، أو لنقل: إن أرسلان يمثل الأنا الثانية للحبيب السايح، ولعله بذلك يكون عنصرا حاملا لرسالة فكرية للقارئ الضمني من خلال هذه الرواية، وإن الأحداث التي يتحرك فيها أرسلان هي من صنيع الكاتب.

وهذه الأحداث يمكن اعتبارها بمثابة وقائع سير-ذاتية لأرسلان الراوي البطل، وهي مذكرات عني بكتابتها طيلة أشهر، ونجده في بعض مواطن السرد يعود بنا إلى زمن كتابة هذه المذكرات، كاشفا عن ميوله وتحيزاته الأيديولوجية بكل شفافية، ويعلن نزوعه الشيوعي الذي كان سببا في التوافق بينه وبين زميلته في مقاعد الدراسة بالجامعة،

[1]- ينظر، العقيل اسمهان علي: الراوي في الرواية الأردنية بين جيلين " دراسة نقدية تطبيقية"، أمانة عمّان الكبرى، عمّان- الأردن، (ط1)، 2008، ص 18-19. .

وكذلك مع صديقته الفرنسية الشيوعية "سيلين شوقالييه"، وضمن هذه النزعة الإيديولوجية يشيد أرسلان بإيمان الصديقة الفرنسية بحق الشعوب المستعمرة في الحرية والاستقلال ودعمها لحركات التحرر في العالم، كما يعلن أرسلان عن ميله للوجودية أيضا، وذلك في قوله: «... شيوعيين أو وجوديين أو عدميين كنت أجدني متأرجحا بين التيارين الأولين المسيطرين» (الرواية، ص 116).

وما يمكن قوله من خلال المواقف المبدئية المبكرة للفكر اليساري من الثورة، أنه تميز بالتردد، كما أنه يبقى بين أخذ ورد مع جبهة التحرير الوطني هاته الأخيرة التي فرضت على التشكيلات السياسية التخلي عن النضال لفترة ما قبل اندلاع الثورة التحريرية، وهذا ما جعل هؤولاء المناضلين داخل هاته الأحزاب يستصعبون الفكرة في بداية الأمر خصوصا أن مفجري الثورة كانوا بالنسبة لهم أشخاصا مجهولين لم يصرحوا عن هوياتهم فكان الغلط في الاعتقاد أن حركة الانتصار للحريات الديمقراطية هي وراء حوادث أول نوفمبر.

تتغير مواقف الحزب تدريجيا قبل إحالته رسميا إلى الالتحاق بالعمل المسلح. حيث اصبح يندد بالقمع الاستعماري في جريدته وجريدته باللغة العربية "الجزائر الجديدة"

حيث Alger Repeblicien و liberte كما كان يقدم تقارير ومعلومات عن سير المعارك بمنطقة الأوراس[1].

كما أصبح الحزب يقدم مساعدات مادية لجبهة التحرير، هذا ما ظهر بعد اعتقال عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، محمد قروف في فيفري 1955 بمنطقة الأوراس، زد على ذلك الدعاية المستترة وتوفير محامين للدفاع عن مناضلي جبهة التحرير الوطني.

ورغم المجهودات التي قدمها أصحاب الفكر اليسار للثورة الجزائرية، فرغم قدم هذا الحزب الذي ظهر منذ عشرينيات القرن العشرين، إلا أنه ظل رهين الطروحات اليسارية الفرنسية، روغم التضحيات التي قدمها في سبيل القضايا الاجتماعية والاقتصادية التي تخص الشعب الجزائري آنذاك كتحسين معيشة الجزائريين والمطالبة بالمساواة، ولم يكن مستعدا لتبني فكرة الجمهورية الجزائرية المستقلة، ولا ليقبل بغير التطور في إطار الإمبراطورية الفرنسية حلا للمشكل الجزائري الذي لا يتعدى مجرد المطالبة بالخبز وبالحقوق المادية، إلا أنه كان يرى بأن العمل المسلح لم يحن أوانه بعد، ولم يتبنّ

[1]– ينظر: محمد تقية، جيش المعايرة الوطني بالولاية الرابعة، دار القصبة، الجزائر، 2002، (ط1)، ص189.

العمل المسلح إلا سنة 1955، حيث انخرط في الثورة تحت قيادة جبهة التحرير الوطني.[1]

من هنا فالتاريخ يؤكد ريادة جبهة التحرير الوطني وقيادتها للثورة الجزائرية، فهي الحزب الشرعي والوحيد الذي احتضن أطياف الشعب الجزائري وقادهم نحو الاستقلال، وناضل في سبيل القضية الوطنية في مختلف المحافل الدولية.

ولكن الكاتب وكأنه يريد أن يقدم لنا تاريخا موازيا، ومن زاوية نظر مختلفة، ولذلك لاحظنا توازي خطاب ثورة التحرير، حيث يصير الفكر اليساري هو قائد ثورة 1954، في الوقت الذي لم تذكر فيه جبهة التحرير الوطني، كما يلحظ القارئ حلول أدبيات أخرى ومعجم أيديولوجي مغاير للخطاب المتعارف عليه في الثقافة الثورية الجزائرية، فالجبهة أصبحت فرقة، والاستقلال أصبح سلما، والثورة أصبحت حرب تحرير، والمجاهد مقاتلا، والجهاد قتالا، والاستشهاد وفاة، ماعدا ذكره "الشهيد علي" في حديث أرسلان مع والد الشهيد «أنا والد علي، قال مفاجئا إياي بما في صوته من رصانة الشهيد علي؟ الذي أعدم بالمقصلة» (الرواية، ص 253).

وهو في أحسن الأحوال نظام منسجم خال من الاستغلال والميز، يتعايش فيه مع الأهالي مع غيرهم، والسعي إلى إنهاء النظام القائم على المستعمر والمستعمَر من أجل

[1]- ينظر، الحزب الشيوعي الجزائري وموقفه من الانفصال عن فرنسا، بوابة الجزائر، موقع الإنترنيت https://www.algeriagate.info تاريخ الزيارة 14- 03- 2022، 17.48سا.

العدالة، على الرغم من تردد كلمة الاستقلال ثماني مرات، وخصص لها مشاهد احتفائية، تبتعد عن طقوس التقديس الذي يربطها الدين. ويبدو هذا الأمر متوافقا مع طبيعة المشاركين في الثورة التي لم تكن حكرا على المسلمين، ولذلك نجد الروائي قام بإبعاد المصطلحات الدينية. واستبدل بها أخرى. وهي مصطلحات محايدة أقرب إلى الفكر اليساري، الذي يركز على البعد الاجتماعي للثورة، وتكررت هذه المصطلحات على مسار الرواية مثل السلم، الحرب، الظلم، العدالة، الاستغلال... وغيرها، وانعكس ذلك على المواقف من الاستقلال الذي كان إقرارا للسلام بين الجزائريين والفرنسيين، الأمر الذي أدى إلى إخراج ثورة التحرير والاستغلال من السردية الكبرى التي صاغت دال الثورة والاستقلال ومدلولهما، فيما يشبه الإنقلاب على أدبيات التاريخ الثوري لجبهة التحرير المرتبط بأخلاقيات المعجم الديني ليتحول إلى دال محايد، كرمز لمشاركة الجميع، وتماشيا مع التاريخ الذي يشده لحاييم الذي لا تاريخ له[1].

لقد تم ترحيل أدبيات ثورة التحرير، من جبهة التحرير التي صنعت نسقا دينيا وسردية كبرى، وكان أرسلان المشبع بالفكري اليساري جسرا بين أيديولوجيتين أظهرت تحالفا بين قوة الإقطاع واليسار واليهود، فقدم إعداما مجازيا لجبهة التحرير من خلال اختزالها في حروف ثلاثة (ج.ت.و) «لخوض حرب التحرير» (الرواية، ص 175). وكان

[1]– ينظر: بادكار لطيف الشهرزوري: السرد مابعد الحداثي:مدياته ومقوماته، جامعة صلاح الدين، أربيل، العراق،(د.ط)، 2020، ص68.

يفرغها من طابعها الديني الرمزي الذي تأسست عليه سرديتها وضاعت أدبياتها منه. فقدمت نفسها منذ بيان أول نوفمبر إلى مؤتمر الصومام والدساتير المختلفة قبل الاستقلال وبعده على أنها سردية كبرى أطردت مفهوم الجزائريين للتاريخ الثوري ردحا من الزمن، وقدمت نفسها على أنها الحامل الوحيد للحقيقة الواحدة والمطلقة.

قام الراوي بما يشبه عملية إعدام لساني استبدل يها مفردات بأخرى. وهي مصطلحات محايدة تستجيب لتحييد أسباب الحرب وحصرها في مطالب اجتماعية من فقر وتهميش. كما أشار إلى أخلاقيات أخرى سكت عنها التاريخ الثوري، وكان السارد يعلم القارئ باللحظات التي يتم فيها تقويض التاريخ الرسمي. بصناعة لحظات أخرى له، خارج الهالة التقديسية التي ارتبطت بها، باعتبارها جهادا لا يختلف فيها الكفاح ضد المستعمر عن القتال ضد الكفر، وهو ما يعتبره السارد تمثيلات ميتافيزيقية أو أيديولوجية طوباوية.

وليس غريبا أن يختار الحبيب السايح شخصية أرسلان وهو الخارج عن المركز، ليتولى حكاية تاريخ الشعب الجزائري من منظوره هو، بل يروي تاريخا آخر ساهم فيه تحالف فئات أخرى من الجزائريين المهمشين، غير أن الإستقلال جاء يعكس ما يتوقع، فلاحظنا كيف بدأ السقوط في الهامش حيث بدأ أرسلان ضحية موقف غامض تجسد

من خلال صراع مباشر مع رجل الحزب، وانتهى إلى خروجه من رئاسة البلدية كإشارة إلى التهميش الذي تعرض له اليساريون.

3. الأبعاد الأيديولوجية للرواية:

3-1. دلالات الشخصية اليهودية في رواية "أنا وحاييم":

لم يكتب الحبيب السايح عن صورة اليهودي الصهيوني في الرواية، بل عن اليهودي الجزائري الآخر، الذي هو جزء من التركيبة البشرية والاجتماعية والثقافية التي تشكل بنية الهوية الجزائرية، صورة اليهودي في رواية الحبيب السايح بريئة من أي حمولة أيديولوجية قد تربطها بالأيديولوجية الصهيونية، أو بمؤتمر كريميو الذي منح الجنسية الفرنسية لليهود والأقدام السوداء الذين يعيشون في الجزائر.

فحاييم في الرواية يرفض السفر مع حبيبته "كولدا رفاييل" إلى "أرض الميعاد" في فلسطين، لأن بلد هو الجزائر. إن موقفا كهذا جعل من شخصية حاييم منسجمة مع موقفها من الاستعمار ومن الظلم الاستعماري، لهذا فإن رفضه للسفر إلى أرض فلسطين هو نابع عن موقفه إزاء الاستيطان الصهيوني في أرض فلسطين، من هنا «يشكل اليهود الجزائريون جزءا لا يتجزأ من مكونات البلد البشرية والتاريخية» وبناء عليه، تصبح الرواية وثيقة تسعى إلى إعادة تركيب صورة اليهود الذين عاشوا في الجزائر وخرجوا منها، والتي يمكن أن يعتبرها البعض جزءا من اللاحقيقة، وتكون إذا

قصة حاييم موضوعا مضللا يدفعنا لقراءته كوسيط سردي تسربت من خلاله مجموعة من الأنساق المضمرة بوعي وبغير وعي، وجعلتنا ننصت إلى الحكاية نفسها وهي تقول أشياء أخرى من خلال مواقف وأحداث أخرى لم نعرها اهتماما لانشغالنا المفرط بمصير اليهودي حاييم والتعاطف معه.

اعتمد الراوي كثيرا على الحوار في النص الروائي، فالحوار يساعد التعرف مباشرة على الآخر، وتبادل المعارف معه واحترامه وسالمته، لأن الحوار سبيل إلى الانفتاح على الآخر، والانفتاح يدعو إلى الحوار، وما حدث بين أرسلان وحاييم يعكس بوضح هذه المسألة، حيث الاحترام المتبادل بينهما ففي حوار الشخصيتين نقرأ: «كنت لي الصديق والأخ والرفيق، وسأبقى لك كذلك» (الرواية، ص 133).

وإذا كان الكاتب عمد في روايته إلى وضع حاييم اليهودي في صورة مثالية تخالف الصورة الذهنية التي نحتفظ بها في ثقافتنا العربية، فجعل منه ودودا في سلوكه، مناضلا من أجل حرية الإنسان العربي المسلم، معارضا لسياسة الصهاينة، فلعل ذلك يعكس رؤية الكاتب التي يريد أن يبشّر بها انسجاما مع النسق العالمي الذي يدعو إلى التعايش مع السامية والانفتاح عليها، وهذا ما نجده في كثير من الأعمال الروائية العربية في الآونة الأخيرة.

إن النظرة الصائبة لا يمكن أن تغيب عن النص القرآني الذي رسم صورة دقيقة عن نفسية اليهود وعن طبيعته الاجتماعية، للتحذير من كيدهم وما تُضمره عقيدتهم المحرّفة من حقد وكراهية للمسلمين، يقول تعالى: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا » المائدة 82، وكذا التنبيه لصفة الخداع والتحايل والتي تخالف أوامر الله «وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ(*) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(*)» البقرة:58، 59.

تظهر ملامح التحايل والخداع في هذه الآية من خلال «تبديل القول الذي قيل لهم، بتحريفه ليوهموا السامع أنهم نفذوا تعاليم الله».[1]

بالإضافة إلى اصطياد الحيتان بطريقة مخادعة ليخادعوا الله لأنهم حرم عليهم الصيد يوم السبت. ولما جحدوا نعمة الله وخالفوا أوامره أنزل عليهم العذاب كما جاء في الظلال: «فإذا جماعة منهم تهيج مطامعهم أمام هذا الإغراء، فتتهاوى عزائمهم وينسون عهدهم مع ربهم وميثاقه، فيحتالون الحيل على طريقة اليهود للصيد في يوم السبت وما أكثر الحيل عندما يلتوي القلب ونقل التقوى ويصبح التعامل مع مجرد

[1] زكريا الزميلي: رمضان الصيفي، مجلة الجامعة الإسلامية ، ص104.

النصوص ويراد التفلت من ظاهر النصوص»[1] والقصد هو كشف أساليب اليهود وألاعيبهم في التخلص والتحرر من القيود.

3-2.الدعوة إلى التعايش

التعايش بين الثقافات يعبر عن جدلية دينامية إيجابية بين التعايش والإندماج والهوية هناك سلسلة محكمة الترابط والتنظيم بين هذه المفاهيم، إذ لايمكن لأحدها أن يتجاوز الآخر فالتعايش هو طريق الإندماج الذي هو طريق للهوية، وبدون هذه السلسلة لن تكون هناك هوية وطنية متماسكة و «فلسفة التعايش ليست وليدة فكر راهني فحسب بل لها جذورها العميقة في الحضارات الأولى» [2]

فمبدأ التعايش ضرورة حتمية للبقاء وليس مجرد خيار هامشي لأنها تخلق حياكة نسيج اجتماعي متجانس بغض النظر عن تعدد الثقافات والأديان كما أن «فلسفة التعايش أضحت في المجتمعات الراهنة حتمية أساسية خاصة في ظل الأوضاع التي يشهدها العالم اليوم وهي الإنفتاح الشاسع في كل المستويات»[3].

---

[1] سيد قطب: في ظلال القرآن ،دار الشروق، بيروت، لبنان، 1996، (ط25)، مج3، ص1384.

1- كريمة بلعز: فلسفة التعايش ودورها في التنوع الثقافي، مجلة آفاق علمية، مج : 11، ع:03، 2019، ص600.

2- المرجع نفسه، ص 601.

وقبول الآخر يعني احترامه في كل أحواله، إما بتشجيعه، أو بالسكون وعدم التجريح فيه، إذا كنا نرفض فيه شيء، سواء تفكيره أو عقيدته، وإذا أردنا أن نبدي آرائنا يجب أن نبديها بالإحترام والأخلاق الواجبة حسب الأسس والمعايير التي وضعها الإسلام في التعامل مع الآخرين، فالإنسان في الإسلام لا يختلف عن غيره إلا في التقوى. سعى الراوي إلى إظهار العلاقة التي من الممكن أن تربط إنسانا بإنسان آخر من وطن واحد ولكنهما يختلفان في الديانة.

حيث سعى السايح إلى إيصال رسالة مفادها أن هناك نقاط تعايش فاصلة، إتنيا ودينيا بين المسلمين واليهود في الجزائر قبل الاحتلال وقبل قانون كريميو، وبالعودة إلى تلك الفترة وحتى عشية حرب التحرير لا تجد هناك فرقا واضحا بين الطائفتين في الجيرة، وفي اللغة، وفي اللباس وفي الغناء. خاصة عند اليهود الجزائريين أصلا، إنما الذي كان سيحدث الشرخ هو قانون كريميو وهو أيضا الحركة الصهيونية التي نشطت في الجزائر غداة نهاية الحرب العالمية الثانية، وخلال حرب التحرير، لتهجير اليهود الجزائريين إلى فلسطين المحتلة، ورغم ذلك هناك من اليهود من بقي في الجزائر.

مايمكن أن يجمع بين اليهودي والمسلم هو الإنسانية، «لأننا جميعا أبناء آدم» (الرواية، ص 330)، فالإنسانية تقاوم الميز على أساس الدين والعرق وتناهض الاحتلال وتتبنى تقرير مصير الشعوب، وفي الآونة الأخيرة حاول العديد من الروائيين

العرب إثارة موضوع حول استحالة التعايش بين اليهود والعرب مسلمين ومسيحيين وغيرهما في البلدان العربية، وما يجري اليوم بشأن فلسطين ليس صراعا دينيا حتو ولو كان الإسرائيلي يتأسس على أيديولوجية دينية، بل هو صراع تحرري وسياسي حول الأرض. ويذكر الراوي أن أرسلان وحاييم لم يخوضا قط في مسألة الدين الخاص بكل منهما. «ولا وقع يوما أن حاول أحدنا رد الآخر عن دينه؛ واجدين ذلك من سلوك عائلتين من المتجاورين من المسلمين واليهود في الدرب خاصة» (الرواية، ص 123).

لأن التعايش يكون وفق النقاط المشتركة الموجودة في كل دين، والتعامل من خلال هذه النقاط المشتركة، حيث أن الأديان السماوية تنادي بالحق، والتسامح، والمحبة والسلام، والبعد عن العنف؛ وربما ابتعد أرسلان المسلم وحاييم اليهودي عن الخوض في هذه الأمور لأنهما يعرفان أن كل منهما يرى أن ديانته هي الحق دون الديانات الأخرى، وأن المبادئ التي تنطوي عليها هذه الديانة، كما أنه يقوم بالدفاع عن ديانته بكل استماتة.

الراوي جعلنا نطمئن إلى قصة تحكي قصة حاييم باعتباره نموذج ليهود الجزائر الذين رفضوا الانخراط في المشروع الصهيوني، وفهموا المواطنة بعبدا عن أي تشنج ديني أو تعصب عاطفي، ويبين لنا من خلال هذا النموذج الحديث عن الديمقراطية، أو العدالة، في ظل سلطة شرعية. وهو ما يعكسه العنوان "أنا وحاييم" الذي يحمل في

صيغته سؤال حول إمكانية تدبير عملية الانتقال إلى تحقيق هذا البعد التشاركي، وتسعى الرواية للوصول إليه في آخر المطاف كدعوة إلى إحياء فكرة والتسامح التي كانت سائدة في المجتمع الجزائري طيلة قرون.

إن إشكاليات الفهم الخاطئ والغلو والتطرف والتهوين والتيبس التي اصابت عقول المسلمين وأسست للمزيد من التوتر والتمزق والصراع، حيث انعكست آثارها على العلاقات البينية بين المسلمين في بعضهم البعض وغيرهم ممن يخالفهم العقيدة والمذهب والفكر السياسي الذي ينحاز إليه . في المجتمعات الداخلية . ناهيك عن علاقة المسلمين بالمجتمعات العالمية من جهة ثانية.

فالكثير من التصورات والمسلّمات الخاطئة تراكمت وشكلت أيديولوجيا سواء عن الآخر، أسست لعلاقات عداء مع الآخر ومع العالم. وخرجت بأصحاب هذه المفاهيم عن السياق العام للإسلام، بما فيها:

. الخلط بين الدين والتدين، وهذا بالمغالات في الإعتزاز بالذات والأفضلية كأفراد على العالمين.

. الخلط بين المعتقد الديني والإعتراف المؤسس للتعايش الاجتماعي.

. الإستعلاء على العالم

. المبالغة في اتهام الآخر من حولنا بالضلال والإنحراف.

. الوقوع في العصبية الجاهلية والعنصرية البغيضة المحرمة شرعا والمجرمة دوليا.

. اختزال العلاقات الفطرية اللازمة بين التنوع البشرية لاستمرار الحياة إلى علاقة الدعوة والتوجيه.

وكل ذلك يؤكد غياب الوعي بأمرين أساسيين هما: الذات والآخر، ذلك لأن الوعي بالآخر هرمون الوعي بالذات.

ومن ناحية أخرى فالتعايش والتعارف، فطرة اجتماعية في الأرض، وقد حرّم الله التجريم والعداء للآخر، بل وسنّ في عباده الإنفتاح عن الآخر، والتعارف والتطاعم، والتزاوج....إلخ.

فالنظرة العنصرية لبعض الفئات وتعمد تهشيمها واعتبارها أقلية من الدرجة الثانية، والإضطهاد الاجتماعي والمهني والسياسي قد تؤدي إلى تلغيم المجتمع بالكثير من المفاهيم الخاطئة والاتهامات المتبادلة، وتخوين الآخر.

ولقد جاء في العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية في المادة 18: «1. لكل إنسان حق في حرية الفكر والوجدان والدين، يشمل ذلك حريته في أن يدين بدين ما، وحريته في اعتناق أي دين أو معتقد يختاره، وحريته في إظهار دينه أو معتقده

بالتعبد وإقامة الشعائر والممارسة والتعليم، بمفرده أو مع جماعة، وأمام الملأ أو على حدة.

2 . لا يجوز تعريض أحد لإكراه من شأنه أن يخل بحريته قي أن يدين بدين ما، أو بحريته في اعتناق أي دين أو معتقد يختاره.

3 . لايجوز إخضاع حرية الإنسان في إظهار دينه أو معتقده، إلا للقيود التي يفرضها القانون والتي تكون ضرورية لحماية السلامة العامة أو النظام العام أو الصحة العامة أو الآداب العامة أو حقوق الآخرين وحرياتهم الأساسية.

4 . تتعهد الدول الأطراف في هذا العهد في احترام حرية الآباء، والأوصياء عند وجودهم، وتأمين تربية أولادهم دينيا وخلقيا وفقا لقناعاتهم الخاصة.» [1].

كما ترى الطالبتان أن تقبل الآخر يبدأ عند الإنسان منذ طفولته، ويكون ذلك بتلقين الطفل وتعليمه كيف يتعامل مع وجود الآخر، «وذكر إليز أن تعليم الأطفال تقبّل الذات يتضمن تعليمهم ألاّ يقيموا أنفسهم بل يقيموا سلوكهم (...) كما أوصى بتعليم الأطفال تقبل الآخر. وذلك عن طريق عدم إصدار الأحكام على الآخرين والفصل بين تقييم

[1]– العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية : اعتمد وعرض للتوقيع والتصديق ولإنضمام بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة 2200 المؤرخ في كانون/ ديسمبر 1966، تاريخ بدء النفاذ: 23آذار/ مارس 1976، وفقا لأحكام المادة 49.

سلوك الآخرين وتقييم ذواتهم بمعنى أنه من الممكن أن نصف سلوك الآخر أنه سلوك سيء دون الحكم عليه انه شخص سيء»[1].

وهذا ما تجسد في الرواية من خلال قضاء أرسلان المسلم وحاييم اليهودي جل وقت الطفولة مع بعضهما، داخل المدرسة وخارجها. ومما ساعد في توطيد علاقتهما وثوق العائلتين في هذه الصداقة تشجيع استمرارها من خلال التبادل والمودة بين الجدة لالة ربيعة بنت الفضيل وزهيرة سماح أم حاييم. «إني لا أنسى أيضا مناسبة المولد النبوي. والديك المعروف بريش نوار الفول الذي ذبحه لنا موشي بو حاييم. ونصف الديك نفسه بمرقة مع الرقاق الذي أوصلته في صحن من الفخار لخالتي زهيرة» (الرواية، ص 108).

ومن خلال التأقلم مع الآخر وقبول وجوده سوف يتم القضاء على أسباب التوتر والعداء وهذا ما قام به أرسلان بدفاعه عن حاييم لمّا هوجم من قبل الأهالي. وفتح المجال للاستثمار الأمثل للتنوع والتميز البشري لكل مكون من مكونات المجتمع، وإشباع حاجات الإنسان للعيش في تنوع يثري الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية، والتحرر من اضطراب الذات بين التصور والمعتقد والعقل والعلم مع الفعل، كما يُفتح المجال لإصلاح خلل النظام القيمي العالمي، والتأسيس لتحوّلات كونية تمكن لقيم

الرحمة والعدالة والتعاون بدلا من سيادة قيم وقوانين القوة والطغيان والظلم والصراع التي فرضتها القوى العالمية.

كما أن التنوع سنة كونية مستمرة إلى غاية الفناء البشري ونهاية الحياة لأن الإنسان كائن اجتماعي لا يمكنه العيش بمعزل عن بني جنسه، وهذا ما أقره الله تعالى في كتابه الكريم «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوب وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » الحجرات، الآية: 13.

هذا لأن سنة التنوع الفطرية التي تقوم على الاختلاف بين مكونين لكل منهما خصائصه الفطرية المميزة التي توجب الاعتراف لكل طرف بخصوصية الآخر، تتبعها الحاجة الفطرية لكل طرف على الطرف الآخر، لما في ذلك من أهمية لترسيخ قواعد وقوانين ونظم لتنظيم وضبط وترشيد العلاقات البينية بين المكونات المختلفة وضمان نجاحها واستقرارها، ودلالة على استمرار وأبدية سنة التنوع البشري قوله تعالى «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقكم» (هود، الآية: 118).

ومن هنا ننطلق إلى ضرورة توجيه الاهتمام والبحث في كيفية التعاطي معها واستثمارها بأفكار وأساليب دائمة لتطوير تواكب تطور حركة الحياة وأشكال التنوع المتجدد. لأن البشرية لن يحدث وتكون في شكل أمة واحدة بل ستبقى مختلفة واستمرار

هذا الاختلاف دلالة على استمرار التدافع المفضي إلى تطوير كافة القدرات والممكنات البشرية لتلبية احتياجات التدافع البشري بمستوياته المختلفة، كما أنه لكل شخص وكل كيان بشري تكوينه وخصائصه ومنطلقاته وأهدافه وجوهره وشكله وفهمه وتشريعاته ومناهجه وقوانينه الخاصة به، واعتراف إلهي بها، ودلالة على أهمية احترامها وعدم الصدام معها مع ملاحظة أن هناك طرقا كبيرا بين الاعتراف بالوجود والحقوق بين الموافقة والاعتقاد. بما في ذلك تنوع التشريعات السماوية ومناهج تنفيذها مع وحدة مصدرها وغايتها في تحقيق مصالح واستقرار البشر على الأرض.

3-3. كسر الصورة النمطية عن يهود الجزائر وتغيير نظرة القارئ :

«لقد استمرت الصورة الشائنة لليهود في الأدب في الأقطار العربية المختلفة وفق ما تثبته الدراسات النقدية الحديثة حتى السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين ، التي شهدت طفرة كبيرة في الإنتاج الروائي العربي الذي تناول اليهود»[1]

ومن أواخر البحوث النقدية التي رصدت هذه الصورة بحث الدكتور نبيل سليمان "اليهود في التخيل الروائي العربي خارج فلسطين" الذي قام فيه بدراسة نقدية لاثنتي عشرة رواية، توزعت بين سوريا ومصر والمغرب والجزائر والكويت، من بين هذه الروايات ما صدرت بين عامي 2000 و2003م وهي كثة في الإنتاج تشهد بإطراد الحضور اليهودي الإسرائيلي في الرواية العربية، فكان في الأمر صحوة روائية مجلجلة بعد مضي ما يقرب من ستة عقود على قيام إسرائيل.

وبعد أحداث "الربيع العربي" والعقد الأول من الألفية الثالثة تجاوز التعامل مع الشخصية اليهودية في الرواية العربية حدود الحياد والموقف الإنساني إلى المديح الذي تجاوز مجرد قبوله والاعتراف به، مثل ما جاء في رواية الزلزال للطاهر وطار التي تتناول شخصية امرأة يهودية والتي من خلالها خلخلة الصورة النمطية التي ظلت عالقة في

[1] محمد سيد أحمد متولي: صورة اليهود في الرواية العربية المعاصرة رؤية سردية مغايرة، رسالة المشرق، (د،ع)، القاهرة، مصر، ص72.

عقول البشرية وخاصة بالاستثناء إلى رواية شكسبير في مسرحية "تاجر البندقية" التي تصف اليهودي وحشيا في جو متشابك ومتشاكل بدأت الرواية العربية تدخل إلى عدد من المناطق الروائية التي كانت مجهولة بالنسبة لها من خلال منطقة سردية ثقافية. ومن هنا أصبح المجال مفتوحا على مصراعيه لتناول اليهودية بعيدا عن الصورة النمطية. فتعدد دور اليهودي من رواية أخرى بين الصديق والحبيب والودود...

ورغم الصفات السلبية لليهودي التي طبعت في المخيل الجمعي، فإن صورة اليهودي في هذه الرواية تخرج عن نمطيتها المألوفة في الأدب الغربي الكلاسيكي.

كما عرضت مسرحية شكسبير صورة منفرة لليهودي، جشعة فضة محبة للمال، حاقدة قاسية مرابية كارهة للآخر فالمرابي "شابلوك" يطلب مقابل دينه رطلا من لحم مدينه، كما أن رواية نجيب الكيلاني "دم لفطير صهيون" سنة 1971م صورت الشخصية اليهودية موغلة في الدم .

وفي رواية "اليهودي الحالي" للكاتب علي المقري. شخصية اليهودي فيها ابتعدت في المرابي البخيل، الذي يتصف بالكراهية، ويدمر جسور التفاهم بينه وبين الأنا من أجل المال، ويفارق صورة المتعدي الصهيوني الذي احتل أرض فلسطين، وسفك الدم العربي. وغلبت صورته الإيجابية المسالمة فضاء الرواية. ورسم الرواي "علي المقري" صورة الشخصية اليهودية من خلال الشخصية الرئيسية "سالم"، هذا الاسم الذي يحيل

إلى دلالة إيجابية. كما نجد لقبه "اليهودي الحالي"، أو "المليح" يعطي ظلالا جديدة لكلمة يهودي، لا علاقة لها بالأذى الذي تصبه الصهيونية على الذات العربية اليوم.

كما نجد أيضا صفة الإيجابية تكمن من خلال محاولة اليهود الانسجام مع النسق الديني، فالالتزام بأوامر الإسلام التي تضبط تصرفات المسلمين، لذلك أعلنوا التزاماتهم بالقانون الذي يمنع بيع الخمور لغير أتباع ملتهم وهذا ما ورد على لسان أسعد حيث يقول: «إنهم ملتزمون بالقانون الذي يحرم عليهم بيع الخمور لغير أتباع ملتهم» (الرواية، ص71،72) إلا أنهم في بعض الأحيان يبيعون الخمر لغير ملتهم، لأنهم كانوا مرغمين ومجبورين حيث يقول أسعد: «نضطر أحيانا إلى ذلك، فبعض المسلمين يجيئون ليشتروا منا الخمر أو نهبه مجانا، فإذا رفضنا إعطائهم يقومون بتخريب ممتلكاتنا، وإذا اشتكينا عليهم لا ننجو من التخريب، أيضا، وتظل شهادتهم هي المقبولة، ولو كانوا كاذبين» (الرواية، ص 72).

وفي رواية "الزلزال" للطاهر وطار، يتأسف "الشيخ العالم عبد المجيد بو الأرواح" لرحيل اليهود مع المستعمر الفرنسي عن مدينة قسنطينة فربما كان بقاءهم فيها سيقدم لها خدمات عديدة عوضا عن الحال الذي هي فيه، من اتساخ وحركة بعد سكون وهدوء، واليهود لم يتركوا خط رجعة لهم، انخدعوا في الجزائر على غير عهدهم. كانوا أسياد قسنطينة، يتحكمون في توجيه سكانها وكافة سكان الشرق بالتبعية، وظلوا خاضعين

للمصلحة العليا للاستعمار ولم يستطيعوا أن يكونوا حكما خاصا بهم عم مستقبل هذا الشعب. هم الذين ظلوا آلاف السنين يرعون شعوبيتهم وقوميتهم

خاتمة

خاتمة:

حاولت هذه الدراسة الإجابة عن تساؤلات البحث، وقد انتهت إلى جملة من النتائج :

ـ اتكأ الحبيب السايح على المرجعية التاريخية، والإجتماعية للتعبير عن رؤيته الفكرية.

ـ توظيف الموروث الشعبي والثقافي من عادات وتقاليد واعتماده كمرجعية أساسية لبناء الرواية.

ـ علاقة الأنا بالآخرفي رواية أنا وحاييم تكشف عن قوة الرابطة بين أبناء الشعب الجزائري والتي حيدت الحواجز الدينية والعرقية وكشفت عن الرابطة الأخوية بين المواطنين أثناء ثورة التحرير.

ـ الإنتماء للوطن من أبرز عناصر الهوية التي دفعت بحاييم اليهودي إلى التنكر لكل ما يربطه بعقيدته وبالوطن المزعوم (إسرائيل) .

ـ تدعو رواية أنا وحاييم إلى تقبل الآخر والانفتاح عليه والتعايش معه وتوحي بأن المواطنة أقوى من الانتماء العرقي.

ـ الوطن بوتقة تنصهر فيه العادات والتقاليد على اختلاف مشاربها .

ـ الجزائر وطن استوعب هويات مختلفة وصقلها لخدمة الجزائريين دون فوارق ولا استثناءات .

ـ حاول الحبيب السايح إعادة بناء نظرتنا ليهود الجزائر من خلال الكشف عن ما قدمه حاييم للثورة الجزائرية ومن خلال التضحيات التي أبداها للتعبير عن ارتباطه بالجزائر وحبه لها.

الملخص:

رواية "أنا وحاييم" للحبيب السايح وثيقة إنسانية عن الجزائر الوطن الذي يقبل الجميع وينبذ الفرقة، مهتمة في حكيها بصداقة جمعت بين أرسلان المسلم وحاييم اليهودي في مرحلة دقيقة من تاريخ الجزائر ليواجها معا كل أنواع التمييز وطمس الهوية والتهكم الديني والفوقية الطبقية من الفرنسيين ، كون الأول جزائريا بربريا مسلما، أما الثاني فلم يشفع له حبه للجزائر من اعتباره عدوا ينبغي عزله وكراهيته باعتباره من الأقلية اليهودية. يروي لنا أرسلان حكاية الوطن المحتل ومقاومة أبناء هذا الوطن للغاصب الفرنسي، ملقيا الضوء على حقائق أغفلها عصرنا هذا. فالمحتل الفرنسي اضطهد وأذل أبناء الوطن المسلوب ولم يفرق بين ذوي الديانات المختلفة، فأرسلان وحاييم حاربا المحتل بغض النظر عن ديانة كل منهما للتأكيد على الهوية الجزائرية.

SUMMARY:

Sayeh is a humantarian -The novel " I and Haim" by Habib Al document about Algeria, the homeland that accepts everyone and rejects the band. It is intersted in telling it about the friendship the brought together Arslan the Muslim and Haim the Jew at a delicate stage in the history of Algeria so that they face together all kinds of discri mination , identity obliteration religious cynicism and class supremacy from the French, Berber, a Muslim. Algeria did the second, his love for Ageria did not stop him from consibering him an enemy that should be isolated and hated as one of the Jewish minority Arslan tells us the story of

the occupied homeland and the resistance of the people of this country to the french usurper shedding light on facts that have been neglected by our time. The French occupier bersecuted and humiliated the people of the stolen homeland and did not diffrentiate between people of different religions, so Arslan and Haim fought the occuper, regardless of theirreligion, to emphasize the Algerian identity .

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1ـ قائمة المصادر:

الحبيب السايح: أنا وحاييم، دار ميم للنشر، الجزائر– مسكيلاني للنشر والتوزيع، تونس، (ط1)، 2008.

2ـ قائمة المراجع العربية:

1ـ نادركاضم، الهوية والسرد، دار الفراشة للنشر والتوزيع، الكويت،(ط2)، 2016.

2ـ عبد السلام المسدي: الهوية العربية والأمن اللغوي، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، بيروت، لبنان، (ط1)، 2014.

3ـ عبد الله التل: الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، قصر الكتاب، البليدة، الجزائر، 1989، (ط2) .

4ـ فاطمة بن عمامة: اليهود في المغرب العربي الإسلامي ، دار كنوز الرحمة، الأبيار، الجزائر، 2011، (د.ط).

5ـ ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، 2013.

6ـ محمد الزحيلي: وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية،(ط1)، 1991 .

7ـ محمد الغزالي: اليهود المعتدون ودولتهم إسرائيل، دار القلم، دمشق، سوريا، 1999، (ط1).

8ـ محمد تقية، جيش المعايرة الوطني بالولاية الرابعة، دار القصبة، الجزائر،(ط1)، 2002.

9ـ محمد سيد أحمد متولي: صورة اليهود في الرواية العربية المعاصرة رؤية سردية مغايرة، رسالة المشرق، (د،ع)، القاهرة، مصر.

10ـ مصطفى المسعودي: من نحن في زمن التحولات الكبرى؟ سؤال الهوية الحضارية: السياق المغربي نموذجا، دار ناشري للنشر الإلكتروني، 2012.

11. يوسف رزق غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ اليهود والعراق، مطبعة الفرات، بغداد، 1924، (ط1).

12. أحمد محمد الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، مصر، (د،ت)، (ط2)

13ـ أبومحمد عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، دار الفكر، لبنان، بيروت، 2001، (د.ط)

14ـ عبد الله التل: خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية، قصر الكتاب، البليدة، الجزائر، 1989، (د.ط).

15ـ أحمد محمد عاشور اكس: صفحات تاريخية خالدة من الكفاح الجزائري المسلح ضد جبروت الاستعمار الفرنسي الاستيطاني، المؤسسة العامة للثقافة،(ط1)، 2009.

16ـ أحمد منور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية دراسة أدبية، دار الساحل، الجزائر، ص134.

17ـ العقيل اسمهان علي: الراوي في الرواية الأردنية بين جيلين " دراسة نقدية تطبيقية"، أمانة عمّان الكبرى، عمّان- الأردن، (ط1)، 2008. .

18ـ أنيس بن علي بن عمر: حرب أتوبر عام 1973، أكاديمية دراسات اللاجئين، فلسطين،(د.ت)،(د.ط).

19ـ خالد عبد الحليم أبو الليل: صورة اليهودي في الأدب الشعبي العربي، المجلس الأعلى للثقافة، 2012،(د.ط).

20ـ سيد قطب: في ظلال القرآن ،دار الشروق، بيروت، لبنان، (ط25)، مج3، 1996.

21ـ عبد الرحيم محمد عبد الرحيم: دراسات في الرواية العربية، دار الحقيقة للإعلام الدولي،(ط1)، 1990.

3ـ قائمة المراجع المترجمة:

قائمة المصادر والمراجع

ـ إليكس ميكشيللي: الهوية، تر: علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، (ط1)، 1993

ـ إيلي زعيرا: حرب الغفران، تر: توحيد مجدي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1997، (ط1) .

ـ كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، تر:نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، (د.ت)، (ط،5)

الدوريات والمجلات:

1ـ نور الهدى غرابة، سليم كرام: المرجعيات الثقافية وبناء المتخيل السردي قراءة في رواية أنا وحاييم للحبيب السايح، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مج1، ع1، 2021، مخبر نظريات القراءة ومناهجها، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر.

2ـ شرقي رحيمة:الهوية الثقافية الجزائرية وتحديات العولمة، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع11، جوان2013، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة– الجزائر.

3ـ أوريدة عبود: فلسفة الآخر المختلف في الرواية الجزائرية، مجلة الأثر، ع27، ديسمبر 2016، جامعة تيزي وزو، الجزائر.

4ـ سمير أبيش: أهداف وخصائص السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، ع23، سبتمبر 2017، جامعة الشهيد حمة لخضر، الوادي.

5ـ فريد بشيش/سعيدي: البرامج الاستعمارية الفرنسية ودورها في سلب هوية الطفل الجزائري، مجلة كلية التربية، ع177، ج1، يناير لسنة 2018م، جامعة الأزهر.

6ـ زكريا الزميلي: رمضان الصيفي، مجلة الجامعة الإسلامية.

7ـ كريمة بلعز: فلسفة التعايش ودورها في التنوع الثقافي، مجلة آفاق علمية، مج : 11، ع:03، 2019.

8ـ ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، 2013.

9ـ منى ظواهرية: اللغة والهوية الوطنية على محك الإرث الاستعماري، جرائم تاريخية وتأزم هوياتي، مجلة البدر، 2018/01/10، المدرسة الوطنية العليا للعلوم السياسية، جامعة بشار، الجزائر.

10ـ نصيرة زيتوني، واقع اللغة العربية في الجزائر، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، م27، ع10، 2013، جامعة حائل، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية، السعودية.

المواقع الإلكترونية:

الحزب الشيوعي الجزائري وموقفه من الانفصال عن فرنسا، بوابة الجزائر، موقع الإنترنيت https://www.algeriagate.info تاريخ الزيارة 14- 03- 2022، 17.48سا

الفهرس

الفهرس:

شكر وعرفان

مقدمة

مدخل: صورة اليهودي في المنظور الثقافي العربي ص02

1- اليهود في العصر الجاهلي.....ص02

2- اليهود في عصر صدر الإسلام.....ص03

3- اليهود في العصر الأموي ص05

4- اليهود في العصر العباسي.....ص06

5- اليهود في العصر الحديث ص07

6. محاولات الكتاب العرب كسر الصورة النمطية عن اليهود.....ص11

الفصل الأول: تمثيلات الأنا والآخر في رواية "أنا وحاييم".....ص13

1. 1 ـ مجتمع الرواية وتمثيلات الهوية.....ص14

2.1 ـ محددات الهوية الجزائرية.....ص27

2- حاييم اليهودي وتمزق الهوية.....ص32

3- المسخ الإستعماري.....ص41

الفصل الثاني: "انا وحاييم" وكسر العادة القرائية.....ص57

1- تفكيك الوعي العدائي:.....ص58

2- تهشيم المركز ومركزة المهمش/ كتابة التاريخ المضاد.....ص69

1.2 ـ شرعنة الخيانة.....ص69

الفهرس

2.2 ـ ترسيخ الفكر اليساري.....ص72

3ـ الأبعاد الأيديولوجية للرواية.....ص78

1.3 ـ دلالات الشخصية اليهودية في رواية "أنا وحاييم.....ص78

2.3 ـ الدعوة إلى التعايش.....ص81

3.3 ـ كسر الصورة النمطية عن يهود الجزائر وتغيير نظرة القارئ.....ص90

خاتمة.....ص94

ملخص.....ص96

قائمة المصادر والمراجع ص98

الفهرس.....ص103